مقدمة

أضع بين يدي القراء الكرام هذه المجموعة من المنظومات التي نظمتها تخيراً من السنة النبوية والمأثور عن السلف الصالح، وهي جولة قصدت منها أن تكون قراءة التاريخ أعذب وأطرب، وأن يطرب المؤمن بهدي السلف الصالح، وهو أسلوب يتلقى فيه المؤمن من التربية والإرشاد والنصيحة على هيئة أغنية ونظم، يشترك فيه تأمل العقل بحداء الروح ونغمة الفرح، وهو عمل بهدي الرسول الكريم كما رواه ابن مسعود: كان رسول الله يتخولنا بالموعظة كراهية السآمة علينا، وقول الإمام علي كرم الله وجهه: روحوا القلوب ساعة فساعة فإن القلوب إذا كلت عميت.

وقد سبق أن طبعت عدداً من هذه القصائد في كتاب سابق بعنوان من شعر الحكمة، تضمن ثلاث عشرة قصيدة، ثم قامت العزيزة سيرين حمشو بنت الأخت الفاضلة الدكتورة رفيدا حبش بتشجيعي على نظم سبع عشرة قصيدة أخرى أكملت بها الثلاثين، فحملتها من فورها إلى قناة اقرأ الفضائية حيث قدمتها في ليالي رمضان للجمهور الكريم ضمن برنامج خاص ولقيت بحمد الله تعالى قبولاً حسناً.

وقد نظمت هذه القصائد من بحر الرجز، على قافية مشطورة، تلتزم قافية متقابلة في كل بيت عجزاً وصدراً، على عادة سلفنا الصالح في نظم المعارف، وعادة ما يسمي العلماء هذه الأعمال نظماً، ولا يسمونها شعراً، حيث روح الشعر قراءة من الذات وانبثاق منها وليس تدويناً لمعارف معلومة، ولكن هذا

اللون من القصيد خاصة في السير والتاريخ لا يخلو من عاطفة جياشة، وتصرف يغني مورد البحث ولا يسي إلى مقاصده، وهو يختلف في ذلك عن نظم العلوم والمعارف التي دأب السلف على نظمها للطلبة، وهي بالفعل خالية من العاطفة والإشراق.

وقد سبق إلى هذا اللون من الشعر شعراء كثير وسماها ابن الدماميني في العيون الغامزة على خبايا الرامزة بالأرجوزة المشطورة، وما من شاعر مكثر إلا وقد أخذ من هذا الباب بنصيب، وقد سبق إليه أبو العتاهية ت ٢١١ هجري في أرجوزته الشهيرة في الأمثال التي جمع فيها أربعة آلاف مثل، ومطلعها:

الحَمدُ لِلَّهِ عَلى تَقديرِهِ ... وَحُسنِ ما صَرَفَ مِن أُمورِهِ
الحَمدُ لِلَّهِ بِحُسنِ صُنعِهِ ... شُكراً عَلى إِعطائِهِ وَمَنْعِهِ
يَخيرُ لِلعَبدِ وَإِن لَم يَشكُرُه ... وَيَستُرُ الجَهلَ عَلى مَن يُظهِرُه

ومن أشهر الرجز الذي سارت به الركبان ما نظمه أمير الشعراء أحمد شوقي في ملحمته الخالدة دول العرب وعظماء الإسلام التي تضمنت تلخيصاً للسيرة النبوية العطرة وقد استفتحها بقوله:

محمد سلالة النبوة ... ابن الذبيح الطاهر الأبوة
العربي طينة نبيلة ... القرشي الباذخ القبيلة
أبوه ذو النور الجميل الجعد ... ومرضعوه الفصحاء سعد
وبيته النجم الرفيع شهرة ... ونبتتاه هاشم وزهرة

ثم مضى ينظم رجزاً سائر حوادث السيرة النبوية، وشرع بعد ذاك في نظم حياة الصديق والفاروق وعثمان وعلي، وخلفاء بني أمية وبني العباس، يختار منهم أبرز الخلفاء ويشير إلى محاسنهم وخصالهم، حتى انتهى إلى الدولة الفاطمية فذكر محاسنها وأثرها في مصر، ورفض الاتهامات الظالمة التي اتهمت بها، وقد وقع النظم كله في نحو ألف وستمائة بيت كلها من الرجز، بالقوافي المتقابلة.

وإنني سعيد أن أعدو في إثره كما عدا هو في إثر البوصيري فقال:

المـــادحون وأربـــاب الهـــوى تبـــع ... لـصاحب الـبردة العـصماء في القـدم

أســـتغفر الله إنـــي لا أعارضـــه ... من ذا يعارض صوب العـارض العـرم

وإنمـا أنـا بعـض الغـابطين ومـن ... يغـبط وليـك لم يـذمم ولم يلـم

ومـن المناسـب أن أشـير هنـا إلى عمـل سـابق قدمتـه في الـنظم لعلـم أصـول الفقه، وهو ألف بيت من الرجز نظمت فيه علم أصول الفقه وطبع عدة مرات بعنوان المعتمد في أصول الفقه، وأنا أرجو أن أضمه مع هذا الرجز إلى المكتبة العربية، تيسيراً للمعرفة، ورغبة فيما عند الله تعالى من العطاء.

وهكذا فإنني أدفع اليوم هذه القصائد للقارئ العربي، وهي جولة روح في بيت الحبيب المصطفى عليه صلاة الله وسلامه، آمل أن تدركنا نفحاته من النور والخير والهدى والعطاء، وإنني أرجو أن تقع هذه القصائد موقعاً حسناً عند المادحين والمنشدين والخطباء والمرشدين، وأن يقرأها المحبون فهي لحن وحداء، وفرح ورجاء، وتوجيه نبوي حكيم يقدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم على مركب النصيحة الهادئة، والمحبة الوادعة، وهو الأسوة الحسنة لكل مؤمن، وسنته وسيرته منارة يهتدي بها السالكون.

الشعر والفن في حياة رسول الله

الشعر أحد فنون الأدب العربي، وهو ديوان العرب، وقد ورد في القرآن الكريم ذم الشعراء وورد في السنة النبوية مديح الشعراء، وليس بين الأمرين تناقض، فالشعر المذموم في القرآن الكريم هو ما كان شعر تزلف وتكسب ابتغاء المال والحظوة، يعتمد فيه الشاعر المتزلف على الكذب والمبالغة لإرضاء ممدوحه، والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

أما الشعر الذي أثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كلمة الحق إذ يقولها الشاعر ينصر فيها مظلوماً أو يصرخ فيها في وجه ظالم، وفي هذا السياق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت: يا حسان.... هاجهم ومعك روح القدس، وكان ينصب له منبره الشريف ليهاجم المشركين، ويشد من أزر المؤمنين.

وهكذا فإن موقف الإسلام من الشعر محكوم بمقاصده وغاياته، فالشعر كلام، حلاله حلال وحرامه حرام، وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد.

والشعر مرتبط ارتباطاً وثيقاً بعدد من الفنون، ومنها الغناء والحداء والموسيقا، ومن المؤسف ان يقوم بعض الواعظين بالمطالبة بتحريم ذلك كله انسجاماً مع الشريعة مع أن حياة النبي الكريم كانت أصدق صورة لاحترام الفن البريء الطاهر، وإقراراً بدور هذه المهارات الوجدانية في بناء حياة مستقرة

ونظيفة، واستحضار مكامن الروح الغائرة، التي طمست الحياة المادية الصاخبة مكان البصيرة فيها.

ليس الإسلام عدواً للجمال والحب، وليس الرسول الكريم كارهاً للفن والموسيقا والغناء، وسيرته العظيمة تكشف لك أنه قدر تلك الفنون قدرها، وأقر النظيف والطاهر منها، ومنع الصاخب والمريب.

ومع أن هذه الدراسة ليست مخصصة لبيان الحكم الفقهي في الموسيقا والغناء والشعر، ولكنني سأقدم طائفة من النصوص النبوية التي تكشف لك الروح الدافئة التي كان رسول الله ينصت فيها إلى إبداع الروح شعراً وغناء وحداء وطرباً، وبحسبي أن أحيلك إلى ما حرره الإمام الجليل ابن حزم في كتابه الشهير: طوق الحمامة في الإلف والإيلاف، وكذلك إلى الفصل الخاص الذي عقده عن الموسيقا والغناء في الإسلام ضمن كتابه الجليل: المحلى في الاحكام، الجزء الثامن.

وإن أفضل سبيل لمعرفة موقف النبي صلى الله عليه وسلم من الفن الغنائي هو قراءة صحيحي الإمامين الجليلين البخاري ومسلم، وذلك في أبواب: العيدين والنكاح والزينة، حيث تجد النبي الكريم، يقدر الفن الطاهر البريء ويثني بالخير على الجيد منه، ويحظر السماع إلى السيئ منه، ويتألق في ذلك كله إنساناً يمتلئ بالمشاعر الدافئة، ويتذوق الإبداع، ويقدر الموهبة، ويعرف سخونة العين وخفق القلب ونجوى الفؤاد.

وقد عرف النبي الكريم أشكالاً من الفنون التي كانت سائدة في عصره، واستمع لأنواع مختلفة من الغناء، وبين يديه أنشدت صحابيات كريمات وصحابة كرام، كما قمن بالعزف بالدف والمزهر والخلخال، وكان لا يفتأ يصوب لهن غناءهن وحداءهن، يقر منه الجيد الصحيح، ويصوب ما يقتضي التصويب، وحين اعترض صحابة كرام على هذه

المزامير والمزاهر وهي الموسيقا السائدة آنذاك قال رسول الله بلطفه المعهود: دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد، وفي رواية إن لكل قوم عيداً وإنه عيد الأنصار.

ومن الحداة والمغنين الذين أنس به رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أنجشة وكان عبداً أسود حسن الصوت وكان رسول الله يصطحبه في السفر، وكان إذا غنى أعنقت الإبل أي أبرزت أعناقها تهتز على طرب صوته، وكان إذا غنى تبكي من غنائه النساء لما يذكر من الإلفة والعهد والنوى والجوى، وكانت أمهات المؤمنين يطربن لغنائه، ولما اشتد بكاؤهن قال له رسول الله ويحك يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير.

ومن حداته صلى الله عليه وسلم أيضاً البراء بن مالك وكان يغني للرجال ويهزج فيهم وربما حجل الناس لغنائه، والحجل هو الرقص والطرب.

ومن خيار المنشدين في العهد النبوي الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري، قال أبو عثمان النهدي: "دخلت دار أبي موسى الأشعري فما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا ناي أحسن من صوته" قال ابن حجر: والصنج هو آلة تتخذ من نحاس كالطبقين يضرب أحدهما بالآخر، والبربط آلة تشبه العود، والناي هو المزمار.

ومنهم أيضاً جاريتان كانتا تغنيان وتدففان في بيت النبي الكريم وحين دخل أبو بكر فنهاهما قال له رسول الله دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد، وفي رواية طريفة أن الداخل كان عمر بن الخطاب فلما سمعن صوته تبادرن إلى الحجاب وتركن ما كن فيه فقال لهن: يا عدوات أنفسكن تهبنني ولا تهبن رسول الله؟ قالت: نعم أنت أفظ وأغلظ!!

وتجب الإشارة هنا إلى أن المدينة المنورة وإن كانت أرض الكفاح والجهاد، وبلد العلم والسنن، ولكنها أيضاً اشتهرت في العصر الراشدي والأموي بأنها أرض الفن والغناء، وكان المغنون والحداة يأوون إلى المدينة المنورة حيث تتوفر ظروف مناسبة لتنمية هذه المواهب الكريمة ضمن أجواء العفاف والطهر والاستقامة.

وهكذا فإن هذه القصائد التي أقدمها لك تجتهد أن تبعث إرادة الفرح والبسمة في لحظة اليقظة الإسلامية، حيث تحتاج المسؤوليات الكبار إلى استراحة محارب آمل أن تجدها في ثنايا هذه المواقف الطريفة لرسول الله والسلف الصالح.

حين تطوف بين هذه القصائد ستجد نفسك أقرب إلى تلك اللحظات الحلوة التي كان النبي فيها يؤسس لحياة طيبة كريمة هادئة تغمرها القيم وتزينها الفضائل، وهي تطرح بين أيدي الناس بالحب والكرامة وليس بالقهر والخوف، وبدون أدنى مبالغة أو تكلف فقد كانت هذه القيم تأخذ مكانها في المجتمع بأسلوب ديمقراطي محبب، ومن خلال ثلاثين قصيدة بين يديك فإنني لا أبالغ أنك ستجد ثلاثين دليلاً علمياً واقعياً تؤيد ما ذهبت إليه في كتابي: النبي الديمقراطي.

حياته ﷺ قدوة للعالمين، إنه معلم الأجيال الهدى والحكمة، إن من حسن حظ الدهر أن حياته الحافلة جاءت واضحة كالنهار، دوَّنها الأئمة الأثبات عليهم رضوان الله، ولعله ﷺ النبي الوحيد الذي دونت سائر أيامه تحت الشمس، فلم يكن في حياته غموض مريب، ولم يشأ يوماً واحداً أن يخرج من قميصه البشري الذي ألبسه الله إياه، ويتصرف على أنه طيف ملاك أو روح إله.

لقد عاش بشراً، يجوع كما يجوع الناس، ويشبع كما يشبع الناس، حياته العظيمة دوَّنها التاريخ بأدق التفاصيل؛ فيها فرحه وحزنه، ورضاه وغضبه، وانتصاره وانكساره، وقوته وضعفه، تقرؤه في صحائف السيرة النبوية بطلاً تفرق من ذكره الملوك على عروشها، وفارساً مقداماً تحتمي وراءه الأبطال، وتقرؤه أيضاً أباً رحيماً، وجداً حليماً، وزوجاً ودوداً حبيباً دامع العين، دافئ القلب.

لا سيف أمضى من سيفه، تراع منه الأبطال، ولا قلب أرحم من قلبه، ولا عين أسخن من عينه، وبين زنده الحديد وقلبه البريء تختصر كل فضائل بني آدم، حيث سكن جوانحه إخلاص نوح وخلة إبراهيم وتجرد أيوب وبأس موسى وشكيمة داود وفهم سليمان وحكمة يحيى وحنان المسيح.

كل سطر من حياته العظيمة كتاب هدى، تقرؤه الأجيال فتشرق أيامهم بنوره، وها نحن اليوم على موائده من جديد نجتهد أن نقتبس أكثر مما وعاه الآباء، ولعله أقل مما سوف تدركه الأبناء.

في الصفحات التالية نستعرض مواقف فريدة للنبي الكريم ﷺ مختارة من عيون كتب السنة المشرفة، نظمتها شعراً على طريقة سلفنا الصالح في نظم الأراجيز، لكل بيت قافية في صدره وعجزه، أؤلف فيها بين الروايات المتعددة في الخبر الذي نحكيه، وهو اجتهاد آمل أن يقع في نفوس الناس موقعاً حسناً، ذلك أني رأيت أن الشعر أوقع في نفس المستمع من النثر، والحداء ألصق بالفطرة، والغاية قرة القلب، وبالله التوفيق.

الحب الحلال

ومعظم هذه القصائد قراءة من داخل بيت النبوة، وهي مواقف كانت بين الرسول وزوجاته الكرام، وهي تؤسس لحقيقة غائبة في سلوك كثير من الناس اليوم وهي ثقافة الحب الحلال.

الحب كلمة من حرفين، ولكنها تختصر صدق الإنسان ودفئه منذ كان الإنسان، وهي في الأصل كلمة قرآنية شريفة:

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُم وَيُحِبُّوْنَهُ﴾ وقوله: ﴿فَاتَّبِعُوْنِي يُحْبِبكُم اللّهُ﴾ وقوله: ﴿وَالَّذِيْنَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للّه﴾

ولكن الحب الذي يسكن فؤاد المسلم تجاه الأفق الأعلى والملكوت الأقدس، ينبغي أن لا ينسينا جوانب أخرى من الحب تتصل بما جبل الإنسان عليه من عواطف شريفة دفّاقة، وهو جانب لا ينكره عاقل، وهو حب الإنسان للإنسان، وحبه لوطنه، وحبه لأسرته، وهي معان من الحب الأسمى لا يصح أن يتجاهلها المؤمن، وهي ليست بحال من الأحوال نقيضاً للحب الخالد بين العبد وبين الرب.

حب الزوجة بوجه خاص، جانب لا يحظى باهتمام كبير في الخطاب التوجيهي السائد، مع أنه كان واضحاً في خطاب النبي ﷺ الذي قال بكل ثقة وصراحة: حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة، والواقع أن الحب الذي هو أسمى الروابط التي تقوم عليها الأسرة لم يحظ بما يستحقه من الدراسة في أعمال الفقهاء، وظل الحديث عنه مقتصراً على كتب الأدب والشعر وعلى ألسنة أهل الهوى، الأمر الذي أدى إلى غربة كلمة (الحب) واستعمالها في معرض الحديث عن العلاقات المحرمة، وكأن الحب لا ينشأ إلا في ظروف الخطيئة على الموائد الحمراء، مع أنه أعظم عطايا اللّه لبني آدم، وحق هذه الكلمة العذبة (الحب) أن تنشأ في أجواء الطهر

والعفاف والنظافة، وأن ينعم بها أولئك الذين يعرفون تماماً عطايا الله لابن آدم، وإنعامه عليه بنعمة الحب الحلال، وإني أعتقد أنه ما إن تنطفئ شموع الحب في فراش الحلال حتى توقد شموع الحب على موائد الحرام.

والتربية بالحب لون من أساليب الأدب النبوي في البناء التربوي، حيث كان يجتهد في إنعاش ما ذبل وإحياء ما تلف من عواطف الحب الدافئة في الحياة.

إني ألوم الفقهاء الذين عزفوا عن استعمال لفظة الحب في علاقات الخاطبين والمتزوجين واستبدلوا منها لفظة حسن العشرة أو العشرة بالمعروف، ومن وجهة نظري فإن كلاً من اللفظين لا يعبر عن الآخر، فالعشرة بالمعروف التزام شرعي للمرأة والرجل لا خيار لأحدهما فيه، وقد جاء الوعيد الشديد في التفريط بهذه الحقوق، ويتولى القانون حماية هذه الحقوق على أساس المعطيات المادية.

أما (الحب) فهو إشراق من لون آخر، لا يملك القانون عليه أي رقابة، وإنما هو سلوك أخلاقي دقيق يرتبط بأعلى درج المثل، ويحمل الإنسان على تقديم التضحيات المختلفة في سبيل من يحب.

إن إعراض الفقهاء عن الحديث عن الحب كثمرة مباشرة للخطوبة، ورابط أساس في الزواج، أدى إلى غربة هذه الكلمة، وصار مجرد إطلاقها في أي سياق يرتبط مباشرة بالعلاقات المحرمة التي تنشأ في الظلام، وترتبط مباشرة بالخيانة الزوجية.

وقد أسهم الإنتاج الإعلامي اليوم في تكريس هذه الصورة، إذ قلما تجده يركز على الحب القائم في رباط الزوجية، بينما يركز بوضوح على علاقات الحب التي تقوم في السر والظلام، وتؤدي إلى هدم الأسرة، ويمكن القول هنا إن ثمانين بالمائة من العمل الدرامي العربي يركز على الحب في إطار العشيقة فقط وخارج إطار الحياة الزوجية.

ولست أزعم هنا أن ذلك يتم على نحو يقصد منه تدمير الأسرة، ولكنه على كل حال يسهم في ذلك وهو ينشأ عادة من رغبة المخرج بإنتاج حبكة درامية تبعث في نفوس مشاهديه الإثارة والتحفز.

وليسمح لي القارئ الكريم أن أمضي هنا للحديث عن بعض ما كان النبي الكريم يقدمه من مثل ومواقف في إطار الحب العائلي، وهي مواقف نوردها عادة من دون التأمل في دروسها ومعانيها[1].

في علاقته بالسيدة خديجة بنت خويلد لم يكن يكف عن الحديث عن الحب الذي كان يظلل حياتهما، ويقول: (إن اللّه رزقني حبها) وحين توفاها الموت فإن حزنه على فراقها كان شديداً لدرجة أنه سمى العام كله عام الحزن!

وعزف عن الزواج بعد ذلك نحو أربع سنين على الرغم من حاجته المؤكدة لإمرأة ترعى شؤونه وشؤون بناته الأربع اللاتي خلفتهن خديجة.

وفي الطبراني عن عبد اللّه بن عمير قال: "وَجِدَ رسول اللّه على خديجة حتى خشي عليه".

ولا شك أن حزنه البالغ على السيدة خديجة هو الذي حال بينه وبين اختيار زوجة جديدة، وأكثر أهل السير يروون أنه ﷺ ما تزوج حتى بلغ المدينة، حيث اقترن بسودة بنت زمعة، مع أن بعضهم يشير إلى زواجه منها قبل ذلك، ولكن مقارنة الروايات يدفعك إلى التساؤل عن السبب الذي حال بين الرسول الكريم وبين زواجه أكثر من ألف يوم بعد موت خديجة على الرغم من حاجته المؤكدة لمن يرعى بناته الأربع بعدها، ولا شك عندي أن السبب هو وفاؤه وحزنه على فراق خديجة حبيبة فؤاده.

وكان بعد ذلك لا يفتأ يذكر خديجة بما سلف منها من خير، وبما عقد بينهما من محبة، وكان يحسن إلى صديقاتها وصويحباتها: جثامة

(١) نقلاً عن كتابي (المرأة بين الشريعة والحياة).

المزينة وهالة وهند بنت خويلد ويقول: (إن حسن العهد من الإيمان، وربما أهديت له الهدايا فيرسل منها إلى صديقات خديجة).

وفي الحديث عن السيدة عائشة قالت: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على النبي ﷺ فعرف استئذانها، فارتاح لذلك فقال: اللهم هالة... اللهم هالة...

قالت عائشة: فغرت فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيراً منها... فغضب النبي غضباً شديداً وقال: (لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي حين كذبني الناس، وواستني بنفسها وبمالها، ورزقني الله منها الولد).

ومع أن النبي كان يحب عائشة غاية الحب ولكن أشواقه إلى خديجة كانت هنا أدوم وأظهر، ورحم الله القائل:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الدهر يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

وحبه لزوجاته الطاهرات كثير مشهور، وبوسعك أن تقرأ ما أورده المفسرون الكرام عند سورة التحريم والأحزاب لترى إلى أي مدى كان ﷺ يقوم بالعناية بهن والإحسان إليهن والرحمة بهن، وإلى أي مدى كان يتدخل لفك ما قد ينشب بينهن من خصومة، وذلك كله مما سطره القرآن الكريم في إشارة واضحة إلى الجانب البشري في شخصيته العظيمة ﷺ، وحضور عواطفه ومدامعه في إطار الأسرة وهو ما نتمنى أن ينبعث في سلوك المسلم اليوم.

وأما حبه لعائشة فشائع مشهور، وقد ترجم الذهبي في سير أعلام النبلاء لعائشة كالآتي: وكانت عائشة امرأة بيضاء جميلة، ومن ثم يقال

لها الحميراء، ولم يتزوج النبي بكراً غيرها، ولا أحبَّ امرأة حبها، ولا أعلم في أمة محمد امرأة أعلم منها.

وقد بدأ حبه لها منذ خطوبته إياها وكان يقول لها: (أريتك في المنام ثلاث ليال جاء بك الملك في سرقة من حرير، فيقول هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك فإذا أنت، فأقول: إن يك هذا من عند الله يمضه).

بل إنه صرح مراراً أن جبريل كان يأتيه بصورتها، وهذا بلا شك لون من الحب والود يتخير أطهر التعابير وأعفها.

قال الذهبي: وحبه ﷺ لعائشة كان أمراً مستفيضاً، ألا ترى أنهم كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة تقرباً إلى مرضاته.

وكان مسروق إذا رأى عائشة قال: حدثتني الصديقة بنت الصديق، حبيبة رسول الله، المبرأة من فوق سبع سماوات.

وكان من عادته الكريمة أنه يصطحب زوجته في زيارته للناس، وكان إذا دعي إلى زيارة كان يشترط اصطحاب عائشة، وقد روى مسلم عن أنس أن جاراً لرسول الله ﷺ فارسياً كان طيب المرق، فصنع للنبي طعاماً ثم جاء يدعوه، فقال: (وهذه؟) ـ أي لعائشة ـ فقال: لا، فقال رسول الله ﷺ: (لا)، ثم عاد يدعوه فقال مثل ذلك، ثم عاد يدعوه فقال مثل ذلك، فقال: نعم في الثالثة، فقاما يتدافعان حتى أتيا منزله.

وتُحَدِّث عائشة أيضاً أنّ الرسول الكريم قال لها يوم العيد والحبشة يلعبون في المسجد بالدرق والحراب: تشتهين تنظرين؟

قلت: نعم، فأقامني وراءه؛ خدي على خده، وهو يقول: دونكم يا بني أرفدة..

وكانت حياته ﷺ مع أزواجه على غاية ما ترتجيه النساء من الود والحب، على الرغم من همومه ومسؤولياته الكبيرة التي يفترض أن تأخذ عليه سائر شؤونه.

وتحدث عائشة: سابقني النبي ﷺ فسبقته ما شاء، حتى إذا رهقني اللحم سابقني فسبقني، فقال: (يا عائشة، هذه بتلك).

وعن عائشة قالت: كان رسول الله يعطيني العظم فأتعرقه، ثم يأخذ فيديره حتى يضع فاه على موضع فمي.

وكانت عائشة بعدئذ تعلم النساء فنون الحب، وتتصدر النساء تعلمهن وسائل الوصول إلى قلوب أزواجهن، جاءت بكرة بنت عقبة فسألت عائشة عن الحناء ـ والحناء هو المكياج القديم كانت النساء تزين به وجوههن وأيديهن ـ فقالت: شجرة طيبة وماء طهور، وسألتها عن الحفاف ـ وهو أن تحف المرأة الشعر عن وجهها نتفاً بخيطين ـ فقالت لها: إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعي عينيك فتصنعيهما أحسن مما هما فافعلي.

وكذلك فإنه ﷺ لم يكن يكتم حبه لعائشة بعدئذ، وعلى الرغم من مسؤولياته الكبيرة في الحياة العامة فإنه كان يدخل إلى داره بقلب دافئ، وكان الناس يعرفون حبه لعائشة حتى أنهم كانوا يهدونه الهدايا في ليلة عائشة ابتغاء رضاه، وحين سأله عمرو بن العاص ذات يوم: من أحب الناس إليك؟ لم يتردد لحظة في الجواب أنها عائشة!

إني لا زلت أشعر بالدهشة من تلك الروايات الكثيرة التي قدمتها زوجات النبي ﷺ بعد موته للناس، تتحدث فيها عن حياته العامرة بالحب، وعن مشاعره الصادقة تجاههن على الرغم من طبيعة حياته الصاخبة

بالمسؤوليات الجسام، وعلى الرغم أيضاً من الحياء الذي يغلب على المرأة، ولكن إصرارهن على رواية تلك الأخبار يعكس لك أي دروس في الحب كانت تلك السيدات تبتغين نشرها في المجتمع.

وكان هذا الحب الغامر يعالج تلقائياً كثيراً من المشاكل التي تنشأ بين الزوجين عادة، ورب موقف ظهر من عائشة فيه ما لا يغتفر، ولكن كان يتجاوز عن ذلك بالحب، قالت له ذات مرة غاضبة: أنت الذي يزعم الناس أنك رسول الله؟ فكان يتلقاها بحنانه وحبه ويقول: أفي شك أنت من هذا يا أم عبد الله؟

وقد صرحت أم سلمة بما كان بين عائشة والنبي من حب، حتى أنه كان يقبلها وهو صائم وقالت: إنه لم يكن يتمالك عنها حباً.

وهكذا فقد كان الرواة من المحدثين يطلقون اسم حبيبة رسول الله على عائشة، كما قال عمار بن ياسر لرجل طعن في عائشة: اغرب مقبوحاً منبوحاً، أتؤذي حبيبة رسول الله ﷺ؟!

الأرجوزة التالية تنقلك إلى بيت النبي الكريم ﷺ وفي حجراته الطاهرة التي كان ﷺ فيها يبلغ الرسالة الخاتمة، ويقدم الشروط الموضوعية لبناء عالم جديد، حيث ستتحول أمم الأرض إلى شريعته ودينه، وعلى الرغم من كل تلك المهام العظيمة يمكنك أن تقرأ شخصيته العظيمة زوجاً ودوداً رحيماً، وتتعلم أدق دروس الحب والوفاء، من خلال صلته الطاهرة بزوجاته الوفيات، ومن خلال حبه وحنانه ووفائه.

وثمة مواقف فريدة وعجيبة من حبه ﷺ لعائشة تركتها إلى قصيدة تالية حيث تجد نظم ذلك.

القصيدة الأولى
في بيت عائشة

عائشة بنت أبي بكر، امرأة فرضت وجودها في نهضة الإسلام الأولى، وأصبحت علماً في معارف كثيرة ومواقف كثيرة، وصارت أشهر الناس في العلم والمعرفة، وأخذ عنها مائتان وعشرون تلميذاً، وانفردت بمذهب خاص في الفقه والتفسير تصدت للرد على كبار الصحابة حتى كتب الزركشي كتاباً خاصاً بعنوان الإجابة فيما استدركته عائشة على الصحابة، حتى قال سعيد بن المسيب ما رأيت الكلام في فم أحد أفخم منه ولا أفصح من فم عائشة، وشاركت بقوة في الحياة السياسية، وبحسبك أن تعلم أن السيدة عائشة قادت المعارضة المسلحة بنفسها في جيش عرمرم فيه طلحة والزبير، في برنامج سياسي خطير للغاية، يعكس مدى ما نالته المرأة من حرية واستقلال في ظلال الإسلام.

ومن الواجب القول إن عائشة رضي الله عنها قد ندمت على خروجها، ولم تكن نتائجه مرضية، وأنها اجتهدت فأخطأت، ولكن ذلك لا يعني أنها قامت بما تحرمه الشريعة.

ولكن القصيدة التي بين يديك تتحدث عن عائشة في أفق آخر، إنها هنا العروس الملتهبة، التي تتفتح فيها إرادة العطاء والشخصية الحرة المستقلة، وتعلن اختلافها الحاد في الرأي مع زوجها ولو كان رسول الله.

إنها رواية خصام نقلها عدد من الأئمة تكشف بوضوح عن أمرين اثنين: الأول: شخصية عائشة وطموحها وتوثبها حتى تمكنت جهاراً من

مواجهة النبي الكريم، برأيها وموقفها، والثاني: موقف الرسول الكريم من غضب عائشة ولجوئه للتحكيم تماماً كما يفعل أي شخص تقع بينه وبين امرأته خصومة.

إنها صورة من المخاصمة ترسم ملامح حب دافئ يجتمع عليه فؤادان عاشقان على فراش الحلال.

أخرج الإمام أحمد عن النعمان بن بشير قال: جاء أبو بكر ﷺ يستأذن على النبي ﷺ فسمع عائشة وهي رافعة صوتها على رسول الله ﷺ، فأذن له فدخل، فقال: يا ابنة أم رومان ـ وتناولها ـ أترفعين صوتك على رسول الله ﷺ؟! فحال النبي ﷺ بينه وبينها، فلما خرج أبو بكر ﷺ جعل النبي ﷺ يقول لها ـ أي يترضاها ـ: (ألا ترين أني قد حلت بين الرجل وبينك)، ثم جاء أبو بكر فاستأذن عليه فوجده يضاحكها، فأذن له فدخل، فقال له أبو بكر يا رسول الله: أشركاني في سلمكما كما أشركتماني في حربكما[1].

وأخرج أبو داود عن النعمان بن بشير قال: استأذن أبو بكر ﷺ على النبي ﷺ فسمع صوت عائشة عالياً، فلما دخل تناولها ليلطمها وقال: ألا أراك ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ فجعل النبيُّ ﷺ يحجزه، وخرج أبو بكر مغضباً، فقال النبي ﷺ حين خرج أبو بكر: (كيف رأيتني أنقذتك من الرجل؟)، ثم مكث أبو بكر أياماً، ثم استأذن على رسول الله ﷺ فوجدهما قد اصطلحا، فقال لهما: أدخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما، فقال النبي ﷺ: (قد فعلنا، قد فعلنا)[2].

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسند الكوفيين من حديث النعمان بن بشير.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، باب المزاح، برقم (٤٩٩٩).

في بيت عائشة

روى الإمــامُ أحمــدُ بــنُ حنبــلِ ... في المــسندِ الموثَّــق المسلــسلِ
عــن أُمِّنَــا عائــشةَ الــصديقة ... قالــتْ وكــلُّ قولِهَــا حقيقَــة

أكثــرتُ للــنبيِّ في الكــلامِ ... لا بــدَّ في الــزواج مــن خــصَامِ
وصــرتُ بعــدُ كلَّمــا دعــاني ... أَعرضْــتُ حتــى لم يَعُــد يرانــي
وصــار يــدعوني علــى اســتعطاف ... وصــرتُ كــالتنوينِ للمــضافِ
وطــالَ هجــري والــنبيُّ صــابرُ ... يهفــو لــهُ قلــبي ولا يكــابرُ

فقــال مهــلاً أمَّ عبــدِ الله ... الــصلحُ خــيرٌ مــن خــصامٍ واهــي
لا بــدَّ مــن شــخصٍ يكــونُ حكمــا ... يرضــى كلانــا حكمــه ويُلزمــا
فقال هل ترضينَ مـا يقـضي عُمَـرْ ... قالتْ معاذَ اللهِ بـل أرضـى بالقـدرْ
فقــال هــل أدعــو لهــا عثمانــا؟ ... قالــت: ومــا يدريــه مــاذا كانــا؟

فقــال هــل نــدعو إذن عَلِيًّــا؟ ... قالــت: أعــوذُ أن تكــونَ تقيًّــا
فهــل أبــو بكــرٍ يحــلُّ المــشكلةْ؟ ... قالــت: نَعَــمْ أبــي لكــلِّ معــضلةْ

فأرســلَ المختــارُ للــصدّيقِ ... تعــالَ يــا مــلاذَ يــومِ الــضيقِ
وجلــسَ الــصدِّيقُ للتحكــيمِ ... وجلــسا كالخــصمِ والخــصيمِ
وبــدأ الــنبيُّ يحكــي مــا حــصلْ ... مبينــاً أســبابَ ذلــكَ الزَّعــلْ
فقامــت الفتــاةُ في هيــاجِ ... قائلــةً: أعْــرِض عــن اللّجــاج
وقــلْ صــواباً واتَّــقِ الخلاقــا ... واحــذرْ فــإني أكــرهُ الــشقّاقا

فــدُهِشَ الــصديقُ ممــا سمعــا ... واصــفرَّ لــونُ الوجــهِ منــهُ فَزِعَــا
ولَطَــمَ الفتــاةَ بــاليمينِ ... وقــال يــا قليلــةَ الــيقينِ

لمثلـــه يُقـــالُ قـــلْ صَـــوابا ... أيكـــذِبُ المختـــارُ إن أجابَـــا

وهَـــمَّ أنْ يـــبطشَ بالـــصبيَّةْ ... فاتَّخَـــذتْ ظهـــرَ الـــنّبي حميَّـــةْ
وأمـــسكَ الـــنبيُّ كـــفَّ صـــاحبِهْ ... مستـــشفعاً يرجـــوهُ لـــينَ جانبـــهْ
أقـــسمتُ بـــاللهِ عليـــكَ جاهـــدا ... دعهـــا فـــإني كنـــتُ فيهـــا شـــاهدا
واتـــركْ لنـــا أمـــرَ الخـــصامِ بيننـــا ... نقضيهِ صُلحاً تحتَ سقفِ بيتنـا

ولم يـــزلْ بـــه إلى أن خرجـــا ... مـــن حيـــثُ كـــانَ قبـــلَ ذاكَ وَلَجَـــا
فعـــادَ يـــدعوهَا إلى الوفَـــاقِ ... فانتبـــذتْ منـــهُ علـــى شِـــقَاقِ

فابتـــسمَ الـــنبيُّ ثـــم قـــالا ... سُـــبحانَ مـــن يحـــوِّلُ الأحـــوالا
قد كانَ ظهري حِصنَكِ الحصينا ... والآن أدعـــوكِ فـــلا ترضـــينا

ولم يـــزلْ يكـــرِّرُ المداعبـــةْ ... ملاطفـــاً حتـــى أتتـــه تائبـــةْ
ودمعـــتْ مـــن حبِّـــهِ عيناهـــا ... توســـلاً ترجـــو بـــأن يرضـــاها
قـــال أبـــو بكـــر أتيـــتُ بعـــدها ... وجدتُـــه يأكـــل شـــهداً عنـــدها
كلاهمـــا في غايـــةِ الـــسرورِ ... والأُنـــسِ والحنـــانِ والحُبُـــورِ
فـــأدركتني لهفـــةُ المغبـــونِ ... فقلـــتُ والعتـــابُ في عيـــوني
ألم أكـــنْ دعُيـــتُ في الخـــصامِ ... فكيـــفَ لا أُدعَـــى إلى الطعَـــامِ؟
فنظـــرَ الـــنبيُّ للـــصدِّيقةْ ... وضَـــحكا لروحـــهِ الرقيقـــةْ
وقـــالَ أهـــلاً ســـيدَ القـــضاةِ ... ومُـــصلِحَ الأزواج والزوجـــاتِ
أنـــتَ لنـــا في الحـــرب والـــسَّلامِ ... رفيـــقُ صـــدقِ البَـــدْءِ والخِتَـــامِ

❖ ❖ ❖

القصيدة الثانية
في عينه بياض

موقف آخر للنبي ﷺ يُصلح فيه بين زوجين متخاصمين، وذلك بالتنبيه إلى عاطفة الحب، بها حقق الرسول الكريم المصالحة والوفاق، على الرغم من أن الموقف يقتضي محكمة ومحاكمة وبيانات اتهام ودفوع وطعون وشهود، ولكن الرسول الكريم ﷺ بحبه وحنانه نقل المحكمة كلها إلى حجرة النوم، وهناك أمكن تحقيق صلح ناجح، يتجاوز بين الخصمين سائر أشكال الخصام.

إن كثيراً من أشكال الخصام تبدو عنيفة قاسية، ولكنها عند الحكيم ليست إلا لوناً من الهياج الذي يطلب تهدئته وليس القصاص عليه، والزمن والأناة كفيلان بمعالجة كثير من أسباب الشقاق.

القصة ملهمة في أكثر من وجه، ولعلها ترشد الفقهاء أيضاً في أن أعظم مقاصد الشريعة إنما هو بناء الأسرة لا هدمها، وأن مهمة الفقيه البحث عن أسباب بقاء الأسرة، وليس معالجة ما قد يتلفظه الزوج الثائر الغاضب لاستخراج صيغة طلاق من ظاهر لفظه قد لا تعبر عن إرادته السابقة ولا اللاحقة، وقد يكون فيها خراب الأسرة وتشرد الأولاد وتحطم حياة الأم نتيجة غضب ساعة، نفخ فيها الشيطان..

المشهد التالي يرويه المحدثون عادة في باب مزاح النبي ﷺ، ولكنه في الواقع درس تربوي متألق ينبغي أن لا يغيب عن خاطر المصلحين والمرشدين والنبي ﷺ قدوة الهدى للمؤمنين.

أخرج محب الدين الطبري والدينوري[1]:

كان صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقا فدخل يوما على أم سليم وقد مات نغر ابنها من أبي طلحة فقال له يا أبا عمير ما فعل النغير وجاءته امرأته فقالت يا رسول الله احملني على جمل فقال أحملك على ولد الناقة قالت لا يطيقني قال لا أحملك إلا على ولد الناقة قالت لا يطيقني فقال لها الناس وهل الجمل إلا ولد الناقة وجاءته امرأة فقالت:

يا رسول الله إن زوجي مريض وهو يدعوك!

فقال: لعل زوجك الذي في عينيه بياض؟

فرجعت المرأة إلى زوجها وفتحت عين زوجها لتنظر إليه فقال مالك: قالت: أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن في عين زوجك بياضا.

فقال: ويحك!! فهل أحد إلا وفي عينيه بياض؟

(١) خلاصة سيد البشر لمحب الدين الطبري ج١ ص٢٤ وتأويل مختلف الحديث ج١ ص ٢٩٣.

في عينه بياض

روى أئمـــة الهـــدى بالـــسندِ ... متـــصلاً مـــن ســـيد عـــن سـيّدِ
امـــرأةٌ جـــاءتْ إلى المختـــارِ ... غَـــضْبَى كأنَّهـــا شُـــواظُ نـــارِ

وبـــدأت تـــشكو إليـــهِ بعلَهـــا ... واصـــــفةً قِلَّتهـــــا وذلَّهـــــا
أخـــذني مـــن عـــزةٍ ومَنَعَـــةْ ... فعـشتُ في الذِّلـةِ والبلـوى مَعَـهْ
ولم أشـاهدْ منـه يومـاً أبيـضاً ... وكلَّمـا ابتـسمَ دهـري أجهـضا
فـــلا ســـرورَ عنـــده ولا هنـــا ... حتى لقد يئستُ من طولِ العنا

أرجـــوكَ في إقامـــة الطـــلاقِ ... عجِّـــلْ رعـــاكَ الله بـــالفراقِ
أريـــدها بينونـــةً كـــبيرةْ ... لا عـــودةَ فيهـــا إلى الحـــصيرةْ
ولا أريـــدُ أن أعـــودَ أبـــدا ... ولـــو بنـــى لـــي القـــصورَ عـــددا
ولـــو كـــساني فـــضة وذهبـــا ... وفـــرشَ الحريـــرَ دربـــي عجبـــا

وشـرعَتْ تـدعو عليـهِ سـاخطةْ ... ومـن صـلاحٍ فيـهِ كانـت قانطـةْ
دعـــتْ عليـــه بـــدعاءِ نـــوحِ ... صـــارخةً كالطـــائرِ المـــذبوحِ

وذهبـــت في قولهـــا الظنونـــا ... دعـــت.. ولكـــن لم تقـــل آمينـــا
فـــأدركَ الـــنبيَّ ســـرَّ المـــشكلةْ ... فلـــيسَ في الموضـــوعِ أي مُعـــضِلةْ
الحـــبُّ موجـــودٌ بـــلا تنـــافِ ... لابـــدَّ في الـــزَّواجِ مـــن خـــلافِ
مـــشكلةٌ واضـــحةٌ مفهومـــةْ ... وقـــال مَـــنْ زوجُـــك يـــا مظلومـــةْ

أهـــو الـــذي بعينـــه بيـــاضُ ... وعـــن ســـواكِ طرفـــهُ غـــضّاضُ

فـــشهقت واســـتعبرتْ حنانـــا ... يـــا ربِّ ســـلِّمْ عينَـــه إحـــسانا

وتركـــتْ خِـــصامها مـــشاعا ... وركـــضَتْ لزَوجهـــا ســـراعا
ودخلـــتْ عليـــهِ بيـــتَ النَّـــومِ ... تاركـــةً جميـــع ذاك اللَّـــومِ
وفتحـــتْ عيونَـــهُ محدِّقـــةْ ... ونظـــرتْ في عينـــهِ محملقـــةْ
هـل مـن بيـاضٍ بعيونِـكَ اتـصَلْ ... لا قـدَّرَ الـرحمنُ مكروهـاً نـزلْ

فقـــالَ هـــلْ أصـــابَكِ الجنـــونُ ... إن الجنـــونَ في الـــورى فنـــونُ
في كـــلِّ عـــينٍ أبـــيضٌ وأســـودُ ... أرشـدكِ الـرحمنُ فـيمنْ يُرشـدُ

فـــضحكت وضـــحكا طـــويلا ... وأدركـــا مـــرادَهُ النبـــيلا
ووقـــعَ الـــصلحُ علـــى الـــسريرِ ... فـــافهمْ ولا مجـــالَ للتفـــسيرِ

وتم الاتفـــــاقُ في الفِـــــراشِ ... عـــادا عروســـين بـــلا نقـــاشِ
فهكـــذا يـــا ســـيدي الإصـــلاحُ ... وهكـــذا تُعـــالَجُ الجِـــراح

فأيَّهـــا الأزواج والزوجـــاتُ ... وأيهـــا الآبـــاءُ والبنـــاتُ
العـــيشُ فيـــهِ ســـكرٌ وملـــحُ ... وفي الـــزواجِ زعـــلٌ وصُـــلحُ
فـإن سـعى الـشيطانُ في إشـعالها ... فـــاتَّبِع الـــنبيَّ في إبطالهـــا
فالمـــصطفى معلـــمُ المحبـــةْ ... فـــاتبع هـــداه حَبَّـــةً فحبَّـــةْ
والحمـــدُ لله علـــى التمـــامِ ... في البـــدءِ والموضـــوعِ والختـــامِ

❖ ❖ ❖

القصيدة الثالثة
من أحب الناس إليك؟

كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يمنح حبه وقلبه لكل زائر، وكان من يلقاه يحسب دوماً أنه أحب الناس إليه، وهو شعور كان يعتز به كل من جالس النبي صلى الله عليه وسلم، وكان إذا صافح أحداً لم ينزع يده حتى يكون الآخر هو الذي ينزعها.

هذا ما شعر به الصحابي الكريم عمرو بن العاص، فقد كان شاباً واعداً تعلق عليه قريش الآمال الكبار وكان صديقاً للملوك، واشتهر بسفارته لقريش إلى النجاشي، وكان رجلاً فصيحاً بليغاً، وكان عمر بن الخطاب إذا رأى رجلاً عيي اللسان يقول: أشهد أن خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد!

حين دخل في الإسلام فرح النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها، ثم أكرمه في المدينة وأرسله أميراً على عدد من السرايا، ويقال لم يرسله رسول الله في سرية إلا جعله أميراً عليها.

وقد شعر عمرو بن العاص بمحبة النبي الغامرة فوقع في نفسه خاطر مشروع وهو أنه أحب الناس إلى قلب رسول الله.

عاش بهذا الحلم الجميل شهوراً عديدة يحدث به نفسه ويحدث أصحابه، ثم بدا له أن يقطع الشك باليقين، ولكن البلاء موكل بالمنطق وهذا ما قد كان.

روى البخاري في صحيحه عن أبي عثمان النهدي:

أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: (عائشة).

قلت: من الرجال؟ قال: (أبوها).

قلت: ثم مَن؟ قال: (عمر).. فعد رجالاً، فسكتُ مخافة أن يجعلني في آخرهم[1].

وروى مسلم في صحيحه عن أبي عثمان قال:

أخبرني عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال (عائشة).

قلت: من الرجال؟ قال (أبوها)، قلت: ثم من؟ قال (عمر)، فعد رجالاً...

وروى ابن ماجه في سننه عَنْ أنس، قَالَ:

قيل يَا رَسُولَ اللّه! أَي النَّاس أحب إليك؟ قَالَ: (عَائِشَة)، قيل: ومن الرجال؟ قَالَ (أَبُوها).

(١) انظر دلائل النبوة للبيهقي، ج٣، ص٢٣.

من أحب الناس إليك؟

روى إمـــامُ الحـــافظين مُـــسلمُ ... في الجامع الصحيح وهو المحكم
عـن عمـروٍ بـن العـاصِ بالإسـنادِ ... يـروي لنـا في معـرض الإرشـادِ

أســـعدني الـــرَّحمنُ بالإيمـــانِ ... وخـــصني الرســـول بالإحـــسانِ
ودادهُ وإلفُـــــهُ عجيـــــبُ ... كأنـــه في حلمـــه طبيـــبُ
وكـــانَ مـــن أخلاقـــهِ العظيمـــةْ ... رحمتـــه بـــصحبة عميمـــة
يحـــسبُ كـــلُّ داخـــلٍ إليـــهِ ... بأنـــه آثـــرهم لديـــه
رحمتـــهُ تغمرُنـــا بالحـــبِّ ... ولم يكـــن فظـــاً غليـظ القلـب
الخلـــقُ كلُّهـــمْ عيـــالُ اللّه ... يحـــبهم حقـــاً رســـول اللّه
وصـــحبهُ مقـــامهمْ كـــريمُ ... لهـــم منـــازل الهـــدى تـــدوم

حبـــاني العطـــاءَ والإكرامـــا ... وخـــصني علـــى الـــورى إنعامـــا
وكـــانَ لا يرســـلُ بعثـــاً إلا ... جعلـــني أميـــره المـــولّى
ولم يـــزلْ يعطـــفُ بـــالودادِ ... علـــي والثنـــا بكـــل نـــادِ
حتـــى بـــدا لـــي أنَّـــني حبيبُـــهُ ... والغيـــب قـــد يدركـــه لبيبُـــهُ

وصـــرتُ لا أشـــكُّ أنِّـــي الأقـــربُ ... وقلبـــه الطـــاهر ودي يرغـــبُ
حتـــى خلـــوتُ مـــرةً بالمـــصطفى ... مجلـــس ود وصـــفاء ووفـــا
ســـألتهُ بمنتهـــى الـــصَّراحةْ ... أرجـــوك يـــا معلـــم الـــسماحة
مـــنْ يـــا تُـــرى أدنـــى إلى ودادِكْ؟! ... مـــن أقـــرب الخلـــق إلى فـــؤادك؟!
ولم أكـــنْ حقـــاً أشـــكُّ أنـــي ... أولى الـــورى بـــه بـــدون ظـــنِّ

فقـــالَ أفـــضلُ الرِّجـــالِ عنـــدي ... حقـــاً أبـــو بكـــر ولـــيُّ عهـــدي!
فقلـــــتُ ذاكَ عمُّـــــه المـــــصونُ ... والمـــــرء لا يبـــــوء أو يخـــــونُ
فقلـــتُ بعـــدهْ؟ فقـــالَ عُمـــرا ... ثـــم علـــي وطلحـــة وجعفـــرا
وغيرَهـــمْ وعـــدَّ لـــي كـــثيراً ... ولم يجـــد ذكـــري لـــه تبريـــرا

فـــصارَ وجهـــي خجـــلاً مُحْمـــرَّا ... وقمـــتُ والـــنفسُ تفـــيضُ حـــسرى
هيهـــاتَ أنْ يَـــدَّارك المخلّـــفُ ... مقـــام مـــن أدوا جهـــاداً ووفـــوا
ولم يـــشأ عمـــرو بـــأن يخفيهـــا ... وظـــل كـــل عمـــره يرويهـــا
ولم يكـــنْ يحـــسُّها إهانـــهْ ... بـــلْ كـــانَ يرويهـــا علـــى الأمانـــهْ
رجـــاء أنْ تعـــرفَ مـــن تحـــبُّ ... وأيـــنَ ينبغـــي يكـــون الحـــبّ

حـــيَّ علـــى الحـــبِّ مـــنَ الحـــلالِ ... والمـــصطفى مُعلـــمُ الرِّجـــالِ
معلـــمُ الحـــبِّ لكـــل زوجِ ... غرامُـــــه وحبُّـــــه في الأوجِ
ويـــشرقُ الزمـــانُ إنْ تَبَـــسَّما ... وتـــورقُ الحكمـــةُ إنْ تكلمـــا
عليـــهِ صـــلَّى اللهُ في سمائـــهْ ... ومـــلأ القـــرآنَ مِـــنْ ثنائـــهْ
والحمـــدُ للهِ علـــى التَّمـــامْ ... ونعمـــةِ الإيمـــانِ والإســـلام

❖ ❖ ❖

القصيدة الثالثة
خــوات بــن جبــيــر

خوات بن جبير بن النعمان الأوسي الأنصاري أبو عبد الله صحابي كريم، لم يرد ذكره في السابقين الأولين ولا هو من العشرة المبشرين، ولكن أخباره القليلة حملت إلينا أعذب المواقف في أصول التربية النبوية، واشتهر باسم صاحب ذات النحيين في إشارة إلى بعض مغامراته العاطفية في الجاهلية حيث وقع على امرأة كانت تحمل نحيين من سمن، وذلك قبل أن يسعد بالإسلام.

كان شاباً وسيماً جميلاً يمتلئ حيوية وشباباً ونضارة، وكان مغنياً عذب الصوت حلو اللحن، يفتقد السراة حداءه في القوافل، وكان بريق الدنيا وبهرجها لا يزال يخلب عينيه البريئتين، فينتقل بين رغائب نفسه وشوق عينيه، يقلب الطرف كأنه المقصود بقول الأول:

إنّ العيون التي في طرفها حور ... قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللبّ حتى لا حراك به ... وهن أضعف خلق الله إنسانا

وهكذا فقد كان شبابه وفتوته حديث النساء، وكان يندفع مع رغائب نفسه ساعة ثم يفيء إلى رشده، كأنما نزل فيه قوله تعالى:

﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ [الأعراف: ٢٠١].

عاش إلى آخر أيام علي ﷺ حيث توفي عام أربعين، وعمره ٧٤ سنة.

في خبره هنا تدرك كيف بعث النبي ﷺ مكامن الإشراق من نفسه، وكيف عالج رغائب الهوى بيديه الحانيتين، وكيف رسم ملامح فقه اليسر

والحكمة، والموعظة الحسنة، في إصلاح الشاردين، وردهم إلى جادة الصواب من غير أن يختار سبيل التشفي والافتضاح، وهو ما يتورط فيه كثير من الدعاة دون أن يحققوا شيئاً من النجاح المطلوب والإصلاح المأمول.

أما تفاصيل خبره فهاك فاقرأها بين الرواية والرجز:

قال خوّات بن جبير: نزلنا مع رسول الله ﷺ مر الظهران فخرجت من خبائي، فإذا أنا بنسوة يتحدثن فأعجبنني، فرجعت فاستخرجت عيبتي، فاستخرجت منها حلّة فلبستها وجئت فجلست معهن، وخرج رسول الله ﷺ من قبّته فقال: (أبا عبد الله ما يجلسك معهن؟) فلما رأيت رسول الله ﷺ هبتُهُ واختلطتُ، قلت: يا رسول الله جمل لي شرد، وأنا أبتغي له قيداً، فمضى واتبعته فألقى رداءه ودخل الأراك، كأني أنظر إلى بياض متنه في خضرة الأراك، فقضى حاجته وتوضأ فأقبل والماء يسيل من لحيته على صدره فقال: (أبا عبد الله ما فعل شراد جملك؟) ثم ارتحلنا فجعل لا يلحقني في المسير إلا قال: (السلام عليك يا أبا عبد الله، ما فعل شراد ذلك الجمل؟) فلما رأيت ذلك تعجلت إلى المدينة واجتنبت المسجد والمجالسة إلى النبي ﷺ، ولما طال ذلك تحينت ساعة خلوة المسجد، فأتيت المسجد فقمت أصلي، وخرج رسول الله ﷺ من بعض حجره، فجاء فصلى ركعتين خفيفتين، وطوَّلتُ رجاء أن يذهب ويدعني، فقال: (طوّل أبا عبد الله ما شئت أن تطوّل فلست ذاهباً حتى تنصرف)، فقلت في نفسي: والله لأعتذرن إلى رسول الله ﷺ ولأبرئن صدره، فلما انصرفت، قال: (السلام عليك أبا عبد الله، ما فعل شراد ذلك الجمل؟) فقلت: والذي بعثك بالحق ما شرد ذلك الجمل منذ أسلمت، فقال: (رحمك الله) ـ ثلاثاً ـ ثم لم يعد لشيء مما كان[1].

(١) معجم الطبراني الكبير، باب الخاء (خوات بن جبير).

خوات بن جبير

روى الإمامُ الحافظُ الطبراني ... في المعجمِ الحافلِ بالمعاني
كانَ النبيُّ سارياً عشيا ... أكرِمْ بهِ مُعلماً نبيا
ومعهُ مِنْ صحبهِ (خواتُ) ... وكلُّ صحبِ المصطفى ثقاتُ

وكان قربَ الحيِّ بعض نسوةْ ... لهنَّ في أمثالهن أُسوةْ
فذهبَ النبي يقضي حاجتهْ ... وظلَّ خواتُ يريدُ غايتهْ

وسارَ خواتُ إلى الصبايا ... مبتسماً في مشيةِ السرايا
وبدأ الحديثُ والكلامُ ... وانكشفَ الغرامُ والهيامُ

وبينما الفتى يطيل شاكياً ... في وصفِ أحوال الهوى تباكيا
ما راعُه إلا النبي المصطفى ... إلى جوارِ رأسهِ قد وقفا
خواتُ ما تبغي من البناتِ؟ ... ولِمْ تركتَ العِير في الفلاةِ؟

فقالَ: مهلاً يا رسول الله ... ويا أمانَ الناسَ يوم الله
ضلّ بعيري فأنا أطلبُهُ ... وقالَ: يا نسوةُ مَنْ تركبُهُ؟

فقلن حاشَ ما علمنا سوءا ... المرء بالآثام لن يبوءا
ووجهُهُ وعينُهنَّ خائفةْ ... كأنَّما قد زلزلوا بالراجفةْ
وقال: قمْ هُديتَ يا خواتُ ... العِير لا تركبهُ البناتُ
وانطلقا وعينُهُ مرتبكةْ ... كأنَّهُ سمكةٌ في شبكةْ

وصارَ بعدُ كلما رآهُ ... يقبل في ابتسامة يلقاهُ
وجدتَ عيرَك الذي فقدتَهُ؟ ... أم لا يزالُ عندهنْ نعتُهُ؟
فيخجلُ الغلامُ أيَّ خَجلِ ... وحالُهُ يقول حانَ أجلي
ولم يزل كذاك حتى عُرفا ... في الناس أنَّه نجيُّ المصطفى

وكـان يومـاً عنـد بـاب المـسجدِ ... فلمـح المختـارَ مِـن طـرف اليـدِ
فعــاد للمــسجد في اســتعجالِ ... واســتقبلَ القبلــةَ في جــلالِ
وبــدأ الــصلاةَ في خــشوعِ ... مطــوِّلَ الــسجودِ والركــوعِ

والمـصطفى المختـار في انتظـارهِ ... مــستنداً إلى جــدارِ دارهِ
خـواتُ طـوِّلْ مـا تـشاءُ فيهـا ... فـإنني بـاقٍ وقـدْ أحييهـا
لـن أبـرحَ المسجدَ حتـى أسـألكْ ... إنْ كنتَ قد وجدتَ بعدي جملكْ

فعلـمَ الفتـى بـأنْ لا فائـدةْ ... فاختـصرَ الـصلاةَ دونَ زائـدةْ
سـألهُ المعلـمُ الـودودُ ... خـواتُ أيـنَ الجمـلُ الـشرودُ
فرجفـتْ عـينُ الفتـى وقلبُـهُ ... وضـاعَ منـهُ زادهُ ودربُـهُ
وقـالَ لابـدَّ مِـنَ الإقـرارِ ... الـذنبُ لا يُمحـى بـلا اسـتغفارِ
مـا ضـاعَ لـي أي بعـيرِ شـردا ... بـل ذاكَ جهـلٌ كـان مـني قـد بـدا

أُعاهـدُ الله فـلا أعيـدها ... فلتَـةُ جهـلٍ لم أكـنْ أُريـدها
وصلحتْ مـن بعـدُ أحـوالُ الفتـى ... إن غابَ عنـهُ المصطفى أو إنْ أتـى
وصـارَ مـن أَجِلَّـةِ الأصـحابِ ... فاعتبروهـا يـا أولـي الألبـابِ
مـن كـان هاديـاً بـالمعروفِ ... فليلتـزم في النـصح بـالمعروف
إن الـدعاة في الـورى هـداة ... للحـب يرشـدون لا قـضاة
والمرشـد الحـق لهـم طبيـبُ ... لم تعْـدُ عينـاه ولا تغيـبُ
مـن رق في نـصح أخيـه زانـهْ ... ومـن أسـاء نـصحه قـد شـانهْ
فـالطف بهـم إن تبتغـي الإرشـادا ... لا تمـسك العـصا لهـم جـلاداً
واتبـع هـدى المعلـم الحكـيم ... إليـه مـني خـالص التـسليم
صـلى عليـه الله نـوراً للـورى ... وخـير مـن أرشـد حقـاً وهـدى

❖ ❖ ❖

القصيدة الرابعة
لقد حجَّرت واسعاً

مسجده ﷺ كان مدرسة تربية وإصلاح ونور، في رحابه الطاهرة كان يتلى القرآن وتقام الصلاة، وكان أيضاً داراً تقوم بوفادة ضيوف الإسلام، وكان أيضاً مجلس الشورى ومكتب القيادة وقاعة العلم والمعرفة.

لقد كان المسجد النبوي على غاية من البساطة ولم تكن له تلك المآذن الشامخة، ولا القباب المذهبة، ولا الأقواس المزركشة، ولكنه قدَّم للعالمين روائع المعارف والحكم، ومن أركانه المتواضعة انطلقت أعظم حركة إصلاح في تاريخ البشرية.

لقد قامت من بعده عشرات الألوف من المساجد في الأرض أكثر منه تكلفة وأفخم صورة، وأكثر مرفقاً، ولكن لم تقم حتى الآن هذه المساجد مجتمعة بعشر ما قام به ذلك المسجد الجليل القائم في تلك المدينة الوادعة في قلب الصحراء.

كان الصحابة الكرام يفرحون بالأعراب القادمين إلى المدينة لما يصدر عنهم من مواقف طريفة تكون سبباً في طرح أسئلة نادرة لا يطرحها الناس عادة أو قل إنهم يستحون من طرحها، ولكن الأعرابي كان بفطرته وبساطته يطرح ما في قلوب الآخرين من تساؤل، وكذلك فإن تصرفاتهم

على طرافتها تكون سبباً في التعرف إلى كثير من الأحكام الشرعية من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فيما يلي موقف من مواقف التربية بالحلم، قدمه رسول الله ﷺ للأمة من خلال موقف طريف لأعرابي يدخل المدينة لأول مرة.

عن أنس بن مالك قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه مه، فقال رسول الله ﷺ: (لا تزرموه، دعوه)، فَتَرَكُوه حتى بال، ثم إنّ رسول الله ﷺ دعاه فقال له: (إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل، والصلاة، وقراءة القرآن)، قال: فأمر رجلاً من القوم، فجاء بدلوٍ من ماء، فشنه عليه[1].

وعن أَبي هريرة قالَ: دخل أعرابي المسجد، ورَسول الله ﷺ جالس، فقالَ: اللهم اغفر لي ولمحمد، ولا تغفر لأحدٍ معنا، فضحك رَسُول الله ﷺ وقالَ: (لقد احتظرت واسعاً) ثُمَّ ولى، حَتَّى إِذَا كَانَ في ناحية المسجد فشج يبول، فقالَ الأعرابي ـ بَعد أَن فقه ـ: فقام إلي ـ بأبي أَنْت وأمي ـ فلم يُؤَنِّبْ ولم يَسُبَّ، فقال: (إن هَذَا المسجد لا يبال فيه؛ وإنما بني لذكر الله وللصلاة)، ثُمَّ أمر بسجل مِن ماء، فأفرغ عَلَى بوله[2].

(١) صحيح مسلم، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد... الحديث رقم (٢٨٥).
(٢) سنن ابن ماجه، باب الأرض يصيبها البول كيف تغسل رقم (٥٢٩).

لقد حجرت واسعاً

روى الإمـام الحـافظ البخـاري ... في الجـامع الـصحيح للأخبـار
بـأن حـضرة الـنبي كانـا ... في مجلـس يعلـم الإخوانـا
وحـوْلَه مـن الـصحاب ثلَّـةْ ... مهـذَّبُون في الـورى أَجِلَّـةْ
فـيهم عيـون القـوم بالمدينـة ... يغـشاهم الـنبي بالـسكينةْ
كـأنْ علـى الـرؤوس مـنهم طـيرُ ... يغمـرهم منـه الرضـا والخـيرُ
سـيماهمُ علـى الوجـوه جـود ... مـن طـول مـا جلاَّهـم الـسجود

وفجـأةً طـرقهم أعرابـيْ ... مقتحمـاً وبـالَ قـربَ البـابِ
فقامـت الـصحابُ ثائرينـا ... وانطلقـوا إليـهِ غاضـبينا
وأمـسكوهُ خائفـاً مـذهولا ... ووبَّخُـوه قامـة وطـولا
تبـولُ في المـسجدِ أيهـا الغـبي! ... بمحـضرٍ مِـنَ الـصحابِ والـنَّبي!
فمـا الـذي ترجـوهُ يـومَ الحـشرِ ... سـوى الجحـيمِ ثـم هـولِ سَـقْرِ
والرجـلُ المـذعورُ في ارتبـاك ... يـودُّ لـو يُلقـى مـنَ الـشباك

نـاداهم المختـار أن دعـوهُ ... وأطلقـوا يـداً وأحـضروهُ
وجـاءُه الـنبي في إشـفاق ... مبتـسماً وقـالَ في إشـراقِ
أخطأت في فعلـكَ يـا أخـا العـربْ ... لا يـستقيم مـا أتيـت والأدبْ
ولم يـزل بـه علـى اسـتعطافِ ... مناجيـاً بغايـة الإلطـافِ

حتـى تـوارى خوفـهُ وزالا ... فاشـتد في مجلـسه وقـالا:
يـارب فـاغفر لـي وصُـنْ محمـدا ... لا تـرحمنَّ هـؤلاء أبـدا

هـم زَرمـوا علـي بـولي رهقـا ... فـازرم علـيهم بـابَ رزقٍ ضـيقا

يعقـد فـيهم أصـبع النكايـة ... إذ أرعبـوه أول الحكايـة
فابتـسمَ المختـارُ ثـم قـالا ... ويـدهُ علـى الفتـى دلالا:
حجَّـرْتَ واسـعاً مـن العطـاءِ ... فرحمـةُ المـولى إلى الـسماءِ
أشـركهمُ يـا أيهـا الأعرابـي ... واطلـبْ مِـنَ البـابِ إلى المحـرابِ
فـدمعت عـين الفتـى وقـالا: ... سـبحانَ مـن يحـوِّلُ الأحـوالا

أشـهدُ أنَّ الله فـردٌ صـمدُ ... وأن خـيرَ خلقـهِ محمـدُ
وقـال حقـاً أنـت سَـيِّدُ الـورى ... وخـيرُ مرسـلٍ هَـدى وبـشَّرا

وأسـرعُ الفتـى إلى الإيمـانِ ... وصـارَ مـن أجلِّـةِ الأعيـانِ
فهـذهِ طريقـةُ المختـارِ ... وسُـنَّةُ الأبـرارِ والأطهـارِ

فهـم عليـه كـسيوفِ الملحمـةْ ... والمـصطفى لـه بعـين المرحمـةْ
فـإن تكـن فظـا غلـيظ القلـبِ ... لم يعرفـوا للحـقِّ أي دربِ
وإن تكـنْ كالمـصطفى رحيمـاً ... تـدلهم دربَ الهـدى القويمـا
فـإن نـصحت أحـسن النـصيحة ... إيـاك أن تجعلـها فـضيحة
الجهـلُ لا يُـصلحه الجـلاَّد ... وإنمـا يُـصلحهُ الإرشَـاد
صـلى عليـه الله في عليائـه ... ومـلأ الأكـوان مـن ضـيائه

❖ ❖ ❖

القصيدة الخامسة
عروس جابر

جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام السلمي الأنصاري، أحد المكثرين للرواية من الصحابة شهد العقبة الأولى مع النبي ﷺ، ولم يشارك في بدر وأحد لصغره، منعه من ذلك أبوه، يقال لأبيه دفين الملائكة، وشهد سائر المواقف بعد أحد مع النبي ﷺ، وعاش جابر حتى انتفع الناس بعلمه، وروى له أصحاب السند جميعاً، وهو آخر الصحابة موتاً بالمدينة، توفي عام ثمان وسبعين عن أربع وتسعين عاماً، وأوصى أن لا يصلي عليه الحجاج بن يوسف الثقفي، نظراً لما وقع فيه الحجاج من مظالم.

في موقفه الذي بين يديك يمكنك أن تقرأ درساً فريداً من دروس التربية النبوية، وهو ما أشار إليه جابر في مسند أحمد بقوله: استغفر لي النبي ﷺ ليلة الجمل خمساً وعشرين مرة.

ها نحن أمام نبي عظيم وقائد ظافر، يعود من غزاته سالماً غانماً آمناً، يرقب الناس وجهه الطافح بالبشر والنصر، ويتهيأ كبار قادة أركانه ليكونوا بين يديه في موكب العائد بالنصر المبين، يتخيرون أزهى الخيل وأنجب البعير، ولكن يلوح له في آخر الركب من صحبه صبي عاثر على بعير ثفال، فيغادرهم جميعاً إلى ذلك الفتى، غير آبه بترانيم النصر وزغاريده، ويفتقد الفتى فإذا هو جابر بن عبد الله على بعير مريض، وينزل عن بعيره ويبدأ بنفسه يصلح بعير جابر بالعلاج والرقية، ثم يختار أن يمشي إلى جواره يلاطفه ويؤانسه سائر الطريق في

تفاصيل دقيقة عذبة ينقلها لنا جابر حرفاً حرفاً، في وعي فريد بمنهج التربية النبوية بالخدمة والمؤانسة لقد كان يقرأ جيداً حركة التاريخ، ويعلم تماماً أين ينبغي أن تعلق الآمال، ويبصر في وجوه الفتية رجال المستقبل، إنه مهندس الرجال، جعل من الأطفال رجالاً، ومن الرجال أبطالاً، ومن الأبطال عمالقة.

عن جابر ﷺ قال:غزوت مع النبي ﷺ على ناضح لنا فأزحف الجمل، فتخلف عليّ، فوكزه النبي ﷺ من خلفه، ثم قال: (بعنيه ولك ظهره إلى المدينة)، فلما دنونا استأذنت، قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بعرس، قال ﷺ: (فما تزوجت بكراً أم ثيباً؟)، قلت: ثيباً، أصيب عبد الله، وترك جواري صغاراً، فتزوّجت ثيباً تعلمهن وتؤدبهن، ثم قال: (ائت أهلك)، فقدمت فأخبرت خالي ببيع الجمل فلامني، فأخبرته بإعياء الجمل، وبالذي كان من النبي ﷺ ووكزه إياه، فلما قدم النبي ﷺ غدوت إليه بالجمل، فأعطاني ثمن الجمل والجمل، وسهمي مع القوم[1].

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فكنت على جمل ثفال، وإنما هو في آخر القوم، فمر بي النبي ﷺ، فقال: (من هذا؟)، قلت: جابر بن عبد الله، قال: (ما لك؟)، قلت: إني على جمل ثفال[2]، قال: (أمعك قضيب؟)، قلت: نعم، قال: (أعطنيه)، فأعطيته فضربه فزجره، فكان من ذلك المكان من أول القوم، قال: (بعنيه)، فقلت: بل هو لك يا رسول الله.

(١) صحيح البخاري، باب الشفاعة في وضع الدين، رقم (٢٢٧٥).
(٢) الثفال: البعير البطيء السير الثقيل الحركة.

قال: (بعنيه، قد أخذته بأربعة دنانير، ولك ظهره إلى المدينة)، فلما دنونا من المدينة أخذت أرتحل، قال: (أين تريد؟)، قلت: تزوجت امرأة قد خلا منها، قال: (فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك)، قلت: إن أبي توفي وترك بنات، فأردت أن أنكح امرأة قد جربت، خلا منها، قال: (فذلك)، فلما قدمنا إلى المدينة قال: (يا بلال، اقضه وزده)، فأعطاه أربعة دنانير وزاده قيراطاً، قال جابر: لا تفارقني زيادة رسول الله ﷺ فلم يكن القيراط يفارق جراب جابر بن عبد الله[1].

(١) صحيح البخاري، باب إذا وكل رجل أن يعطي شيئاً، ولم يبين كم يعطي، فأعطى على ما يتعارفه الناس، رقم (٢١٨٥).

عروس جابر

روى الإمـامُ الحـافظُ البُخـاري ... عـنِ الـصحابي جـابرِ الأنـصاري
في بـاب لـين المـصطفى وقربِـهِ ... صـلى عليـهِ اللهُ ثـم صـحبِهِ

كنـا مـع الـنبي في غـزاةِ ... والمـصطفى معلـمُ الهُـداةِ
أبطـا علـي جملـي وأعيـا ... وصـرتُ في القـومِ كئيـبَ المحيـا

وخلَّفـوني بائـساً محزونـا ... أنـدبُ حظّـي أرقـبُ المَنونـا
وأصـبحوا أبـصرُهم بحَـدَقي ... يـسارعونَ الـسيرَ نحـو الأفـقِ

وفجـأة عـاد إلـي مـنهمُ ... كالـسَّهمِ يعـدو فـارسٌ مُـشَكَّمُ
فقلـتُ مـنْ عـساهُ أنْ يكونـا ... يـاربِّ فـارحمْ عبـدَكَ المـسكينا

فلـم يكـن إلا رسـولَ اللهِ ... عليـهِ حقـاً صـلواتُ اللهِ
فقـالَ مـا شـأنكَ يـا مـسكينُ ... فقلـتُ إنـي بـائسٌ حـزينُ

أصـبحتُ فـوقَ جمـل ثِفـالِ ... أشـقى بـهِ في سـائرِ الأحـوالِ
فنـزلَ الـنبيُّ عـن بعـيرِهِ ... وكـفَّ مـا قـد كـانَ مـن مـسيرِهِ

وطـالَ عنـد جملـي انتظـارهْ ... يُـصلِحهُ كأنَّـهُ بيطـارهْ
صـلى عليـه اللهُ مـنْ شـفيقِ ... وإنَّمـا الـصديقُ وقـتَ الـضيقِ

حتـى إذا حَجَنَـه بمِحْجَنِـهْ ... كأنَّمـا بعثَـه مـن مَدْفنِـهْ

فـصار يعـدو سـابقَ الرجـالِ ... كأنَّمـا نَـشَطَ مـن عقـالِ

ولم يـزل كـذاك حتـى سـبقا ... والقـومُ خلفـي يركُـضونَ رهقـا
واشـتد في إثـري رسـول اللهِ ... يعـدو ووجهـهُ كـريمٌ زاهـي

وأقبـل الـنبي في إشـفاقِ ... مناجيـاً في غايـةِ الإشـراقِ
حتـى تحاذينـا سـواء الركـب ... فـداهُ أمـي وفـؤادي وأبـي

فقـال مهـلاً فـيم هـذا الـركضُ ... تعـدو كطـيرٍ عذَّبتـهُ الأرضُ
فقلـت إنـي فَـرِحٌ عـروسُ ... هـيَ الـرئيسُ وأنـا المـرؤوسُ

فـافترَّ عـنْ ثغـرٍ يفـيضُ صـيِّبا ... وقـالَ بكـراً شـئتها أم ثيِّبـا
فقلـت بـل ثيبـةً كريمـةْ ... صـالحةَ الأخـلاقِ مـستقيمةْ

فقـالَ يـا جـابرُ هـلاّ اخترتهـا ... بكـراً إذا داعبْتَهـا لا عبتهـا
فقلـتُ بـلْ قـصدتُها مَرامـا ... تـضمُّ تـسعَ إخـوتي اليتـامى

فمـلأ الـوادي لـيَ اسـتغفارا ... ومـلأ الـدنيا بـهِ استبـشارا
دعـاؤهُ يغمـرُ طيـبَ عيـشي ... كـأنني وحـدي بـذاكَ الجـيشِ

وإنـهُ القائـدُ والإمـامُ ... ومـا أنـا إلاَّ لـه غـلامُ
وقـالَ هـلْ تبـيعني الـبعيرا ... ألم يكـنْ مُعوَّقـاً كـسيرا

فكفَّـني الحيـاءُ أنْ أُجيبـا ... وقلـتُ مـالي غـيرهُ رَكوبـا
وقلـتُ خـذهُ هبـةً كريمـةْ ... فقـالَ بـلْ بـسعرِهِ والقيمـةْ

فقـــال بِعْنيـــهِ علـــى أوقيَّـــةْ ... وخـــذْ فقـــارَ ظهـــرهِ هديَّـــةْ
ولم يـــزلْ يـــسومُني في ســـعرهْ ... حتـــى رضـــيتُ بامتثـــالِ أمـــرِهْ

وجئـتُ عرسـي ضـاحكاً مـسرورا ... مـــصفقاً أكـــادُ أن أطـــيرا
أخبرتُهـا مـا كـانَ مـنْ حكـايتي ... وكيـفَ كـفَّ المـصطفى شـكايتي

صـــلى عليـــهِ اللّهُ في الأبـــرارِ ... وســـيدُ العمـــالِ والتُّجـــارِ
حتـــى إذا لقـــيني في الـــسوقِ ... ونـــاقتي تختـــالُ فـــوقَ النـــوقِ

فقـــالَ يـــا جـــابرُ أوفِ الـــصفقةْ ... صـارَ البعيُـر لـي شِـرى لا صـدقةْ
وقـــالَ يـــا بـــلالُ زدْ أوقيـــهْ ... وزدهُ ضـــعفَ حقِّـــهِ هَديـــهْ

حتـــى إذا أدَّى ووفَّـــى ووفـــى ... وطفـــحَ المكيـــالُ حتـــى شـــرفا
وقـــالَ خـــذْ بعـــيركَ الجمـــيلا ... هديـــةً تـــذكرها طـــويلا

تـــذكرني بـــصالحِ الـــدعاءِ ... والملتقـــى منـــازلُ الـــسماءِ
صـلَّى عليـكَ اللّهُ يـا خـيرَ الـورى ... يا خيرَ مَنْ باعَ وخيرَ من شَرى

❖ ❖ ❖

القصيدة السادسة
درة بنت أبي لهب

المشهد بين يديك موقف آخر من مواقف النبي ﷺ في التربية، يصل به رحماً قطعها الغي والحسد، وهي رحم عمه أبي لهب، في مشهد دقيق يكشف لك عن منزلة الرحم في الإسلام.

لم يذكر الرحم إلا ذكر الرحمن؛ قال تعالى في الحديث القدسي:

(أنا الرحمن، وهي الرحم، شققت لها اسماً من اسمي، من وصلها وصلته، ومن قطعها بتتُّه)[1].

الموقف الذي نمضي إليه هنا هو موقف فريد لسيد الواصلين ﷺ يدفعك إلى البر والصلة ابتغاء وجه الله، سعياً مبرّأً من وصمة المعاوضة، حين تكون الصلة أداءً مقابل عطاء، وإنفاقاً بانتظار عوض، تماماً كما سأل رجل للنبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إن لي قرابة، أَصِلُهُم ويقطعوني، وأُحسن إليهم ويسيئون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ، فقال: **(لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفُّهُمُ المَلَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم، ما دمت على ذلك)**[2].

الرحِمُ في الأصل علاقة أخلاقية ضمائرية، وهي علاقة قانونية في حالات استثنائية، واليوم مع تعاظم الصخب المادي وشيوع قطيعة الرحم، وتمزق الأسر، فإن الحاجة تتأكد لإطلاق قانون مدني كامل بعنوان (قانون الرحم) يتناصف فيه الناس على أساس من الهدى الإسلامي.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، وأبو داود في سننه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها.

القصيدة بين يديك ترسم ظلال الحقوق الأسرية بريشة النبي الكريم من خلال صلته لأشد أرحامه قطيعة وغياً وصدوداً، حيث يؤسس على أنقاض مواقفهم الظالمة، مملكة الحب والصلة والوداد.

عن أبي هريرة وعن عمار بن ياسر قالوا:

قَدِمت درة بنت أبي لهب المدينة مهاجرة فنزلت في دار رافع بن المعلى فقال لها نسوة من بني زريق: أنت ابنة أبي لهب الذي يقول الله له: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾؟! فما تغني عنك هجرتك؟!

فأتت درة النبي ﷺ فذكرت ذلك له فقال: (اجلسي)، ثم صلى بالناس الظهر وجلس على المنبر ساعة ثم قال: (أيها الناس ما لي أوذى في أهلي فوالله إن شفاعتي لتنال قرابتي حتى إن صداء وحكما وسلهبا لتنالها يوم القيامة)[1].

وفي رواية أن اسمها سبيعة:

عن أبي هريرة أن سبيعة بنت أبي لهب جاءت إلى رسول الله فقالت: يا رسول الله، إن الناس يقولون أنت بنت حطب النار، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما بال أقوام يؤذونني في قرابتي؟ من أذاني في قرابتي فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذي الله تعالى[2].

(١) ذكرت القصة في ترجمة درة بنت أبي لهب في كتاب الإصابة لابن حجر.

(٢) انظر سبل الهدى والرشاد للصالحي، ج ١١، ص٤.

درة بنت أبي لهب

روى الإمامُ الحافظُ ابنُ حجرِ ... أسفارُهُ طافحةٌ بالدررِ
أنَّ إمامَ المرسلينَ المصطفى ... صلَّى عليهِ اللُه مجداً ووفا
دعا قريشاً لسبيلِ الحقِ ... وهديهُ منارةٌ للصدقِ

لكنَّهم تفرقوا صُدودا ... وذهبوا من هديهِ بعيدا
أتاهُمُ بمحكمِ القرآنِ ... فانصرفوا للبَغيِ والعُدوانِ

وكانَ من أكفرهِمْ أبو لهبْ ... تبَّتْ يداهُ مِنْ مخازيهِ وتَبْ
زوجتُهُ أكفرُ منْهُ وأشدّ ... في جيدها حبلُ عذابٍ من مَسَدْ

تاريخهُ يحفلُ بالخزايا ... سجلهُ يطفحُ بالرزايا
بغىَ طويلاً ونأى وعادى ... يحاربُ الإسلامَ والرشادا

عقبُهُ اجتُثَّتْ فكانَ أبترا ... إلا ابنةً له بها تدثرا
درة ظلّتْ حَوْلَه قريبَةْ ... ترعاهُ رغمَ ما بهِ مِنْ ريبَةْ
حتى أتاهُ عقرُ المنونِ ... وماتَ مهجوراً بلا مُعينِ

لما رأتْ والدَها صريعا ... وأهلُها قد هلكوا جميعا
توجهتْ من مكةٍ مهاجرةْ ... إلى ابنِ عمِّها رجاءَ الآخرةْ

لَقِيَها المعلمُ الرسولُ ... وفضلهُ على الورى جميلُ
أنزَلها منازلَ الكرامةْ ... ولم يشأ تُحرجُها الملامةْ

ولم يشأ يذكرُ عن أبيها ... شيئاً من التنزيلِ قد يؤذيها

لكنَّها جاءتْهُ في بكاءِ ... ضارعةً في غايةِ الرجاءِ
تقولُ يا ابنَ عمٌّ يا ملاذي ... وأنتَ مَنْ بمجدهِ عياذي

عجائزُ الأنصارِ في المدينةْ ... جعلنني من الأسى حزينةْ
يذكرنَ بالسوءِ أبي أبا لهبْ ... يذكرنَ أمي حينَ تحملُ الحطبْ
كأنني وحدي ابنةُ الكفارِ ... وأنهنَّ من سُدى الأبرارِ
وهنَّ من عنايَ في شماتةْ ... يرجو المعنَّى بينهُمْ مماتهْ
هم غمزوني في الدروبِ غمزا ... ولمزوني عامدينَ لمزا

ودمعتْ من حرقةٍ عيناها ... ومن لها إلا الأمينَ طهَ
فنظرَ النبيُّ للمسكينةْ ... وكفَّ منها العبرةَ الحزينةْ
وقال لا تأسي ولا تخافي ... لستُ بقاطعٍ ولا مجافي
غداً أقومُ فيهِمُ خطيبا ... أرجو أراكِ.. فقفي قريبا

تقدمتْ درةُ في استحياءِ ... بارزةً مِنْ سائرِ النساءِ
حتى رآها واصلُ الأرحامِ ... معلِّمُ الحكمةِ للأنامِ
فقطعَ الخطبةَ في صرامهْ ... ولم يتمَّ بعدها كلامَهْ

يا قومُ هلْ لكلكمُ أنسابُ ... ورحمٌ.. وليسَ لي أنسابُ؟!
أما لكم قرابةٌ ورحمُ ... ولي إليكُمْ صلةٌ ورحمُ؟!

فقامَ فيهِمْ عمرُ هدّارا ... واستل سيفاً صارماً بتارا

مَـنْ ذا الـذي بغيِّـه قـد أغـضبكْ ... فـألفُ سـيفٍ يتقـونَ غـضبَكْ

فقـالَ قـد أوذيـتُ في أرحـامي ... يـساءُ فـيكمْ لِـبني أعمـامي
وهـذِهِ درَّةُ بنـتُ عمِّـي ... وحزْنهـا وغَمُّهـا كغمـي
كـلُّ امـرئٍ بكـسبهِ رهـينُ ... مـن خـائنٍ قـد يولـدُ الأمـينُ

ألا وكـلُّ سـببٍ ينقطـعُ ... في الحشرِ.. غير نسبي لا يُقطَعُ
وسبـبي ونـسبي موصـولُ ... يـا سـعدُ مـن قريبـهُ الرسـولُ

ودرةٌ درةُ أهـلِ بـيتي ... قـد شَـرُفَتْ بـالحيّ لا بالميـتِ
أنـا ولـي أمرِهـا أسـعى لهـا ... ورحمـي أَبْلُّهـا بلالهـا
ودرةٌ تزهـو بمـا يقـولُ ... طـوبى لمـن نـصرهُ الرسـولُ
رافعـةً في صَـحبها الجبينـا ... تزهـو علـى البنـاتِ والبنينـا

وأقبلـت عجـائزُ الأنـصارِ ... عـانقنَ فيهـا درةَ المختـارِ
سـألنها الـسماحَ والغفرانـا ... تنسى مـن التفـريطِ مـا قـد كانـا

ولم تكُـنْ درةُ ذاتَ زوجِ ... وإنهـا في الحـسنِ فـوق الأوجِ
فأرسـلَ الـنبي يختـارُ لهـا ... دحيـةَ ذا الجمـالِ وهـو أهلـها
جمالـهُ وحـسنهُ مـشهورُ ... ترنَّمـت بحـسنهِ الطيـورُ
ووجهـهُ كأنـه جبريـلُ ... إشـراقهُ مثـلَ الـضُّحى أصـيلُ

فقـالَ يـا دحيـةَ هـل تختـارُ؟ ... فقـال مـا لمـؤمنٍ خيـارُ
إذا قـضى الـرحمن أو رسـولُهُ ... فلـيسَ لـي شـيءٌ هنـا أقولُـهُ

فقـــالَ زوَّجْتـــك بنـــتَ عمـــي ... أرجـــو رضـــا أبـــي وبـــرَّ أمـــي
علـــيَّ مـــا تطلبُـــه صَـــداقا ... فكـــن حنونـــاً واتـــقِ الخلاقـــا
وبـــاركَ العـــروسَ والعريـــسا ... وزفَّهـــا عِيـــساً يقـــود عِيـــساً[1]
وصَـــلْتُ عمـــي ولقـــد جفـــاني ... وبنـــتُ عمـــي اليـــومَ في أمـــاني

دعـــا ونـــاجى ببليـــغِ الأدبِ ... مباركـــاً.. وقـــال في تحبُّـــبِ
درةُ.. هـــل علـــي بعـــدُ واجـــبُ ... قـــولي فـــإني لرضـــاكِ راغـــبُ

فـــشهقتْ واســـتعبرتْ حنانـــا ... طـــوَّقْتَني بـــينَ الـــورى إحـــسانا
وددتُ لـــو تكـــونُ في عيـــوني ... أغمـــضُها وأنـــتَ في جفـــوني
جُزيتَ خيراً من رسولٍ وابـنِ عَـمّ ... ودمـــتَ في رحـــابِ هـــذه الـــنِّعَمْ

حيـــاكَ يـــا معلـــمَ الوصـــالِ ... وراحـــمَ النـــساءِ والرجـــالِ
صـــلى عليـــكَ اللهُ يـــا محمـــدُ ... يـــا خـــيرَ مَـــنْ أتـــى الوجـــودَ يرشـــدُ
وآلـــهِ مـــا وُصِـــلَتْ أرحـــامُ ... وعَـــشِقَتْ سُـــنَّتَهُ الأنَـــامُ

❖ ❖ ❖

(١) العيس: الإبل الشقراء.

القصيدة السابعة
المهور والخدور

زوجتكها بما معك من القرآن.

إنها قصة مشهورة ولكن هل تتضمن تفريطاً بحقوق المرأة ومنزلتها؟ وهل رضي الرسول الأكرم للمرأة أن تذهب في زواجها إلى مجهول؟ أم أنه كان يقوم بحماية مستقبلها وضمان حقوقها؟

الواقع أن سنة النبي ﷺ بحر زخار، وهديه في المهر يتفاوت بتفاوت الأحوال، فربما تيسر وربما تشدد، وربما آتى إحداهن قنطاراً وربما زوج إحداهن بالسورة من القرآن، وربما أوْلَم عليها بشاة وربما نثر أقِطّاً وتمراً. وهو في ذلك كله يرسم منهج التيسير للأمة ليتخير كل قوم ما يناسبهم من الهدى والرشاد.

والقصيدة بين يديك في امرأة أرهقها الدهر، تذوق من لأوائه وتصبر على ضرائه، وقد سئمت من انتظار فارس الأحلام، وأوشك أن يفوتها قطار الحياة، وبدأ الخوف من المجهول يعضها، فصارت تتمنى ظل رجل تستظل به، واسم رجل تنتسب إليه، وعلى الرغم من إمكاناتها المحدودة فقد شمخت ببصرها إلى رسول الله ﷺ وطمعت فيه زوجاً، فهو على ما كان فيه من عز الأرض ومجد السماء كان ألطف الناس بشراً، وأعظمهم حلماً، وأحناهم على مسكين، ولما لم يقض فيها بشيء راحت تسأله أي رجل آخر، تدفع به ضرها وسأمها، ومع ذلك فلم يدفعها رسول الله ﷺ إليه

دونما ثمن، وإنما ألزمه البحث عن المهر، ولو خاتماً من حديد، ولكن ما الحيلة في شفاء العي ؟

وحينما أعجزه تطلابه، ورأى رسول الله شاباً وفتاة في ظروف متشابهة من القلة والعناء، دفعه إليها بما معه من القرآن، وهذا المهر هنا منطقي وحكيم وفيه رضاهما وزوال عنائهما.

عن سهل بن سعد أن امرأة جاءت رسول الله فقالت: يا رسول الله!! جئت لأهب نفسي لك! فنظر إليها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فصعَّد النظر إليها وصوَّبه، ثم طأطأ رأسه، فلما رأت المرأة انه لم يقض فيها شيئاً جلست، فقام رجل من أصحابه فقال: أي رسول الله! إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها! قال: هل عندك من شيء؟ فقال: لا والله... ما وجدت شيئاً، فقال: انظر ولو خاتماً من حديد، فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله، ولا خاتما من حديد ولكن هذا إزاري، قال سهل: قصد أن يعطيها نصف ردائه، فقال رسول الله: ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما تصنع بإزارك؟ إن لبسْتَه لم يكن عليها منه شيء وإن لبسَتْه لم يكن عليك منه شيء!! فجلس الرجل حتى طال مجلسه، ثم قام فرآه رسول الله صلى الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مولياً، فأمر به فدعي، فلما جاء قال: ماذا معك من القرآن؟ قال معي سورة كذا وسورة كذا.. عددها، فقال: هل تقرؤهن عن ظهر قلب؟ قال: نعم.. قال: اذهب فقد زوجتكها بما معك من القرآن![1].

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى، ج٦، ص١٠٤.

المهور والخدور

روى الثقاتُ من أئمةِ الهُدى ... مُتفقينَ في الصِّحاحِ سَندا
عن سهلِ بنِ سعدٍ وهوَ السَّاعِدي ... أَكرِمْ بِهِ مِنْ عابدٍ وراشد

بينا رسُولُ اللهِ في الأصْحابِ ... يُرشدهم للحَقِّ والصَّوابِ
أتتْ إليهِ إمْرأةٌ حزينه ... صالحةُ الأحوالِ مُستكينه
ولمْ تكنْ ذاتَ جمالٍ وحسَبْ ... أو ذاتَ مالٍ وقصورٍ وذهبْ
قالتْ وفي نظرتها تماهي ... وهبتُ نفسي لِرسُول اللّهِ

فصعّدَ النظرةَ ثمَّ صَوّبا ... آلمهُ يردُّ ذاكَ الطلبَا
ولم يشأ يقضي بها مشيئهْ ... وإنَّما جعَلَها نسيئه
ولم يكنْ منْ شأنهِ الترددُ ... وكلُّ أمرهِ هدىً ورشْدُ

فقامتِ الفتاةُ في تعثُّرِ ... واحمرَّ خَدَّاها منَ التحسُّرِ
تقولُ إنْ لم تقضِ في أمْرا ... فزفّ لي عبداً إذاً أوحُرَّا
أُريدُ أن أعفَّ في الحلالِ ... ومنْ يكُنْ زوجي فلا أبالي

فجاءَ يسعى رجلٌ في الصُّفة ... وقالَ أيضاً إن قصدي العفَّة
إنْ لمْ تشأْ نكاحَها فإنَّني ... أرجوكَ زوِّجني بدونِ منّ
فقالَ ما أعددتَ منْ مهرٍ لها ... تصونُها وترتجي المنى بها
فقال ما عندي طعامٌ آكلُه ... والرزقُ رزقُ اللهِ وهوَ كافِلُهْ
فقالَ يا ويحكَ يا كسُولُ ... الرِّزقُ لا يُدْرِكُهُ الخَمُولُ

قُمْ فالتمِسْ مهراً لها حلالا ... وآتِها صَداقها كمالا
قم فالتمِسْ ولوْ حديداً خاتمُ ... الرزقُ لا يأتي وأنتَ نائمُ

فأدبرَ الفتى بذا وولَّى ... وعادَ في خُفَّي حنينٍ عطلا
وقال لم أجدْ لها وفاءَ ... حظِّي أرى التعتيرَ والشقاءَ
وقال مالي غير ثوبي هذا ... فلتتخذه مهرها الممتازا

فقال ما أشقاكَ منْ تعيسِ ... وثوبكَ البالي منَ التفليسِ
إنْ لبِسَتْه لم يكنْ عليكَ شيءْ ... أو ترتديهِ أنتَ فهيَ دونَ شيءْ

ووقفَتْ له الفتاةُ ناظِرَه ... ترتدُّ منها النظراتُ حاسِرَه
لسانُ حالها يقولُ إنّني ... رضيتُ زوّجني ولا تردَّني
تحتاجُ ظلَّ رَجُلٍ أو رسمَهْ ... أو ريَحَه أو أنْسَهُ أو إسمَهْ

سأله هل تحفظ القرآنا ... هلْ تحفظُ النُّورَ أوِ الفُرقانا
فقال ما أحفظُ منها شيّا ... وارتدَّ منها حاسِرَ المحْيَا
ولم يكنْ إلاّ قصارَ السُّورِ ... كالنَّاسِ والفيلِ وبعضِ الكوثرِ
ورغم ما أظهر من تقصيره ... ورغم ما رأته من تعتيره
فإنها ظلت إليه راغبة ... ترمقه بعين بؤس طالبة
لسان حالها يقول أهلا ... رضيته وإن يكن مقلاً
أريد ظل رجل يحميني ... يعصمني من فتنتي في ديني

فقال قُمْ زوجتُها بما معكْ ... لعلّ ما تقرأهُ أنْ ينفعكْ
فهذه حكاية المسكينة ... أتعس مفلسين في المدينة

زوجهـــا الرســـول دون مهـــر وقـــس عليهـــا مثلـــها في الـــدهر

قـــضى بهـــا نبيُّنـــا المختـــارُ لِمِثْلِهـــا ومثلـــهِ نختـــارُ
لكنّهـــا ليـــسَتْ قياســـاً في الـــورَى والأصْـــلُ في المهـــرِ كَفـــاءٌ وقِـــرَى
حتَّـــى يـــصيَر قـــادرَ الإنفـــاقِ ويتَّقـــي مَنَابِـــتَ الـــشّقاقِ
والمهـــرُ في الأصَـــحِّ رزقُ عـــامِ ترصُـــدُهُ الفتـــاةُ للأيَّـــامِ
مَـــنْ لم يُوفَّـــقْ في ادّخـــارِهِ سَـــنَهْ فـسوف يمـضي عمـره في المـسكنَهْ
فالمـــصطفى معلِّـــمُ الأنـــامِ ســـنَّتُهُ علـــى مـــدى الأيَّـــامِ
تُلـــهِمُنَا الحكمَـــةَ والرَّشـــادا وتُـــسعدُ العبـــادَ والـــبلادا

❖ ❖ ❖

القصيدة الثامنة
مهر فاطمة

الزواج في الإسلام ذو بعد عاطفي وروحي، يلتقي فيه فؤادان بريئان بدفء الحلال لبناء الحياة على أساس من الطهر والعفاف، وعندما يلقي الحب ظلاله في الحياة الزوجية فإن كثيراً من التفاصيل المادية تبدو في غير معنى، وهيهات للقلب الذي سعد بنعيم الحب ودفئه أن يلتفت إلى تفاصيل السكن والنفقة على أساس مقاطع الحقوق.

ولكن الشريعة الحكيمة ليست خاصة بمجتمع من الشعراء، ولاتبنى أحكامها على أساس خفقات قلوب العاشقين، إنها أيضاً شريعة حياة، تهتم بأدق التفاصيل، وتبنى علاقات المجتمع على أساس من التكافل والتوازن والتكامل، وعلى الرغم من عقيدة هوان الدنيا على الله، ولكن الأدب النبوي لم يكفّ عن توجيه الأمة وإرشادها لما هو الأحكم والأكمل في شؤون دنياهما على أساس أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن استخلاف الإنسان فيها رسالة وأمانة.

والمهر هو أحد هذه التفاصيل الذي أمرت به الشريعة: ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾ [النساء: ٤] و ﴿وآتوهن أجورهن بالمعروف﴾ [النساء: ٢٥] .

وهو عطاء رمزي يراد به بعث الطمأنينة في نفس المرأة، ومنحها جانباً من الأمان والثقة إذا ما أصابتها عوادي الدهر.

ولكن المهر الذي هو محض صيغة أمان، عرض له في السلوك الاجتماعي عارضان كلاهما تفريط بمقاصده، وتضييع لغاياته، إذ ذهب قوم إلى التغالي في المهور حتى صارت ربحاً وتجارة، ونشأ عن ذلك تعقيد

لبناء الأسرة وعنس نساء كثير، وعزف عن الزواج شباب كثير أيضاً، وأصبح المهر عقبة أخرى أمام تيسير الزواج.

ومن جانب آخر فإن آخرين استخفوا بمقاصدية المهر، وراحوا يفرطون به ويتجاوزونه كما لو كان خطأ فقهياً ينبغي الخلاص منه، واشتهرت بعض العقود بمهر قدره عشر ليرات، أو درهم واحد، أو سورة الإخلاص أو غير ذلك، ولكن ما إن يتم عقد الزواج ويستفيق الطرفان على واقع الحياة حتى تتبخر أحلام وردية كثيرة، ويقف المرء أمام مقاطع الحقوق.

عن علي قال: لقد خطبت فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت لي مولاة لي: هل علمت أن فاطمة تخطب؟ قلت: لا- أو نعم- قالت: فاخطبها إليه. قال: قلت: وهل عندي شيء أخطبها عليه؟ قال: فوالله ما زالت ترجيني حتى دخلت عليه وكنا نجله ونعظمه- فلما جلست بين يديه لجمتُ حتى ما استطعت الكلام. فقال: هل لك من حاجة؟ فسكت. فقالها ثلاث مرات. قال: لعلك جئت تخطب فاطمة؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: عندك من شيء تستحلها به؟ قال: قلت: لا والله يا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: فما فعلت بالدرع التي كنت سلحتها؟ قال علي: والله إنها لدرع حطمية ما ثمنها إلا أربعمائة درهم، قال: اذهب فقد زوجتكها، فابعث بها إليها فاستحلها به[1].

(١) اتحاف الخيرة للبوصيري، ج٤، ص٤٠.

مهر فاطمة

الحمـــد لله علـــى عطائـــه ... حمـــداً ينجينـــا لـــدى لقائـــه
وأفـــضل الـــصلاة والـــسلام ... علـــى الـــنبي مرشـــد الأنـــام
ســـــنته وهديـــــه نـــــبراس ... وهـــي لنـــا الـــسراج والأســـاس

أهـــديك مـــني هديـــه القـــديما ... إن كنـــت ترجـــو الـــدرب مـــستقيما
قـــراءة في فقـــه بيـــت المـــصطفى ... أكـــرم خلـــق الله بـــراً ووفـــا

كتبتهـــا لمـــن يريـــد يـــسأل ... في المهـــر مـــا الأكثـــر والأقـــل؟
هـــل زوج الـــنبي دون مهـــر؟ ... ومـــا الـــذي اخـــتص بـــه للـــصهر؟
وشـــرعه قـــد جاءنـــا بـــسيطاً ... لم يـــشرع الإفـــراط والتفريطـــا

بناتـــــه المكرمـــــات قـــــدوة ... وللـــورى في مهـــرهن أســـوة
فـــالأمر في بناتـــهِ الأطهـــارِ ... زوّجهـــنّ أكـــرَمَ الأصْـــهارِ

فبنتُـــهُ زينـــبُ زفّـــتْ مكرّمَـــهْ ... إلى أبـــي العـــاصِ أميـــر المكرُمَـــهْ
التـــاجر المعـــروف بالإقـــدام ... وتـــاجر الإيـــلاف صـــوب الـــشام
أمهرهـــا كـــرائم الأمـــوال ... ومهرهـــا مـــسدد في الحـــال
ويـــوم بـــدر أعتقتـــه زينـــب ... فـــداؤه الإســـتبرق المـــذهب
وإن تـــشأ تـــسأل عـــن عثمانـــا ... ومهـــره رقيـــة إحـــساناً
فحسبك المحفوظ في كتب الأدب ... ومـــا بـــه تحـــدثت عنـــه العـــرب

أحـــسنُ زوجـــينِ رأى إنـــسانُ ... رقيَّـــةَ وزوجُهـــا عثمـــانُ
وأمّ كلثـــومٍ سَـــنا البـــدرينِ ... بهـا اسـتَحقَّ المجـدَ ذو النُّـورينِ
صِـهرانِ صـالحانِ في الأخيـارِ ... كلاهمـا مِـنْ سـادة التُّجـارِ

وبنتـــهُ فاطمـــةُ الزهـــراءُ ... وهـــيَ لكـــلِّ خاطـــبٍ رجـــاءُ
وعنـــدما خطبهـــا علـــيّ ... وهـــو الأمـــيُن العـــارفُ القـــويّ
العـــالُم الحـــافظُ للقـــرآنِ ... ونـــادرُ المثـــالِ في الزَّمـــانِ
ســـألهُ الـــنبيّ في سماحـــهْ ... عـن مهرهـا في منتهـى الـصَّراحهْ

وقـالَ مـا أعددتَـهُ مـنْ مهرهـا؟ ... مهـراً يليـقُ في النـساءِ مثلـها
فقـالَ قلـبي والهـوى ومُقلـتي ... وأنـتَ تـدري قلـتي وحـيلتي

فقـال أيـنَ درعُـكَ الحطميِّـهْ ... بِعْهـا بعـشرينَ وزد أوقيَّـهْ
قـم فاشـتري بهـا حُليّ فاطمـه ... ومثلُـهُ للحَفـلاتِ اللازمَـهْ
شـارفتينِ مـن كِـرامِ النُّـوقِ ... تغمـرهنّ بـالحُليْ في الـسُّوقِ

فـأنجزَ الوصـيَّةَ الحكيمَـهْ ... وبَـسَطَ الـولائِمَ الكريمَـه
وخـصَّها المهـرَ كريمـاً طيِّبـا ... وجـادهَ اللُـه غياثـاً صـيِّبا
وصـار أعلـى مثـل الوفـاق ... والحـب والحنـان والإشـفاق

وهديـه الـصواب في بناتـه ... كهديـه الحكـيم في زوجاتـه
أمهـرهن اكـرم المهـور ... وعمهـن بالهـدى والنـور
ومهـرهن الحـق مـن وداده ... أكـبر مـن عطائـه وزاده
فَرُبَّمـا زُفَّـتْ لـهُ نـساؤهْ ... ومهـرُهنَّ عنـدَهُ دُعـاؤهْ

وربما زفّتْ بقيراطٍ ذهبْ تحدَّثتْ بعُرسِ رملةَ العَرَبْ
وعرسِ ميمونةَ في وادي سَرِفْ وزينبَ الخيراتِ والباقي عُرِفْ
فأنزلَ الناسَ بها المنازلا وكانَ في عِشرتهنّ عادلا

فإنْ تكُنْ آتيتَها قِنْطارا فحقُّها استيفاؤهُ جَهارا
حتَّى يصيرَ قادرَ الإنفاقِ ويتَّقي مَنَابِتَ الشِّقاقِ

وغاية الكلام أن المهرا كفاية ومكرمات وقرى
لا يشرع الإفراط في أثمانه ولا كذا التفريط في مكانه
ضمانة شرعها الرحمن وسنة فصلها العدنان
صلى عليه الله في سمائه وملأ الوجود من ثنائه

❖ ❖ ❖

القصيدة التاسعة
موقف وداع

المشهد التالي يحملك إلى موقف عظيم للرسول الكريم روي مرتين:

الأولى: قبيل وقعة بدر مع صحابي جليل هو سواد بن غزية، والثانية: قبيل وفاته ﷺ وعند اشتداد مرضه مع صحابي كريم يقال له عكاشة بن محصن، ولا شك أن الأولى أقوى سنداً، وإن كان تصور وقوع القصتين مرتين أمراً وارداً أيضاً، خاصة إذا علمت أن بينهما نحو ثمانية أعوام.

والمشهد يحملك إلى الأفق الأقدس في الملكوت الأعلى حيث كانت تتوجه آمال رسول الله ﷺ، حيث كان يرجو أن يدخل الملكوت الأعلى وما عليه من أوزار الدنيا من شيء.

لقد أراد أن يحقق المصالحة مع العباد، وهو منطق علّمه للناس كل حياته، فقد كان يبيت حين يبيت وليس في قلبه غل على أحد.

وهو القائل: (أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي، من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار)[1].

(١) صحيح مسلم باب تحريم الظلم رقم (٢٥٨١).

هاهو يتقدم من أصحابه وإخوانه له طهر الملاك وخوف ابن آدم، قدماه في وحل الأرض وعيناه في مجد السماء، يشتاق إلى لقاء الله ويخشى من حسابه، يشد من سغب بالحجر أحشاءه، ويبيت طاوياً ويصبح صائماً ولا يرتع في أموال المساكين، خشية موقفه بين يدي ربه.

هاهو في موقف وداع لا يجوز أن يغيب عن بال أحد من سلاطين الأرض، ينصف الناس من نفسه وينشد الخلاص.

يروى أن هشام بن عبد الملك وكان من أكثر ملوك الدنيا ترفاً وملكاً، حج فحج معه ستمائة بعير يحملون له أثوابه وأمتعته، (مع أن حاجة المرء في الحج إلى ثوب واحد غير مخيط ولا محيط!!)، ولما أدركه الموت اجتمع أهله من حوله يبكون، فتجلد على آلامه وقال: جاد لكم هشام بالدنيا، وجدتم له بالبكاء، وترك لكم ما جمع وتركتم له ما عمل، يا ويح هشام إن لم يغفر له الله..

ها أنت هنا أمام طريقة أخرى لوداع العالم، بطلها رسول الله ﷺ في مشهد تذرف منه العيون وتخفق له القلوب، وهاك الخبر بين الرواية والرجز.

روى البيهقي بإسناد قوي ـ كما قال الذهبي ـ عن أبي ليلى قال: كان أسيد بن حضير رجلاً ضاحكاً مليحاً، فبينا هو عند رسول الله ﷺ يحدث قوماً ويضحكهم فطعنه رسول الله ﷺ بإصبعه في خاصرته، فقال: أوجعتني، قال: فاقتص، قال: يا رسول الله إن عليك قميصاً ولم يكن علي قميص، قال: فرفع رسول الله ﷺ قميصه، قال: فاحتضنه، ثم جعل يقبل كشحه، وقال: بأبي وأمي يا رسول الله..

وأخرج البغوي عن سواد بن عمرو كان يصيب من الخلوق، فنهاه النبي، ولقيه يوماً ومعه جويردة فطعنه في بطنه قال: أقدني يا رسول الله، فكشف عن بطنه، فقال: له اقتص، وألقى الجريدة، فطفق يقبله، قال الحسن: حجزه الإسلام.

وروى البيهقي أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً متخلفاً، فطعنه بقِدْحٍ كان في يده، ثم قال ألم أنهكم عن مثل هذا؟ فقال الرجل: يا رسول الله إن الله بعثك بالحق، وإنك قد عقرتني، فألقى إليه القِدْحَ وقال استقد، فقال الرجل: إنك طعنتني وليس علي ثوب، وعليك قميص، فكشف له رسول الله ﷺ عن بطنه، فأكب عليه فقبله[1].

(١) راجع كتاب كشف الخفاء للعجلوني باب طلب الاستقادة من النبي ﷺ.

موقف الوداع

روى أبـــو داودَ والنـــسائي ... في ســـنن الرشـــادِ والوفـــاءِ
ومثلـــهُ في مجمـــع الزوائـــدِ ... ومنبـــعِ العلـــوم والفوائـــدِ
للحـــافظِ الجليـــلِ نـــور الـــدينِ ... الهيثمـــي حجـــةِ الـــيقينِ

في ذكـــرِ بـــدرٍ غـــزوةِ الفرقـــانِ ... لمـــا تلاقـــى عنـــدها الجمعـــانِ
في أول المواقـــعِ العظيمـــةْ ... ودرة المـــشاهدِ الكريمـــةْ

والمـــصطفى إمـــامُ أهـــلِ الحـــقِّ ... يقـــودهمْ علـــى طريـــقِ الـــصدقِ
أصـــحابُهْ خيـــارُ أهـــلِ الأرضِ ... هـــم أقرضـــوا لله نعـــمَ القـــرضِ
أرواحهـــم للمـــصطفى فـــداءَ ... أجـــسادهم كانـــت لـــه وقـــاءَ

واتخـــذوا لـــه بهـــا عريـــشا ... ينظـــر فيهـــا راقبـــا قريـــشا
تـــسيرُ كِـــبراً ورئـــاءَ النـــاسِ ... وبطـــرَ الحـــقِّ بـــلا إحـــساسِ

لكنـــه قبـــلَ القتـــال طافـــا ... بـــالجيشِ يختـــارُ لهـــم أعرافـــا
ذكَّـــرهم عـــبيرَ مجـــدِ الآخـــرةْ ... يعطِّـــرُ الأنـــصارَ والمهـــاجرةْ
حيَّـــاكَ يـــا معلـــمَ الرجـــاءِ ... ومنـــصفَ الأرضِ مِـــنَ الـــسماءِ

وحـــينَ طـــوقتهمُ الجيـــوشُ ... وطـــاف في ذكـــراهم النعـــوشُ
جمعهـــم معلمـــاً رؤوفـــا ... وصـــفَّهم مِـــنْ حـــولهِ صُـــفوفاً
وقـــالَ يـــا معاشِـــرَ الرجـــالِ ... الله ربـــي عـــالمٌ بحـــالي
مـــن كنـــت قـــد ظلمتـــه في مـــالي ... فـــإنني أبيحـــهُ أمـــوالي

أو كنتُ قد ظلمته في عِرضهِ ... لن أبرح المكان ما لم أُرضهِ
أو كنتُ قد ظلمته في البدنِ ... فإنني رهنٌ له في بدني

أصحابه يستمعونَ القولا ... لا حول يملكونه أو طَولا
نبينا الصادقُ والمصدوقُ ... وكلُّنا لوصلهِ مشوقُ
يدعو إلى القصاصِ والحسابِ ... من نفسهِ لسائر الأصحابِ

وخفقتْ في حبِّهِ الشجونُ ... ودمعتْ من شوقهِ العيونُ
محمدٌ يدعو إلى القصاصِ ... من نفسهِ جهراً بلا مناصِ
فأيُّنا المحتاجُ للمسامحةْ ... وأيُّنا ذو المكرماتِ الراجِحةْ
فأينا يطيب نفساً فيهِ ... يقتص بالنبي أو يؤذيهِ

ولم يزل يكرِّرُ المناشدةْ ... يذكرهم بأوثقِ المعاهدةْ
يقسمُ باللهِ عليهم جاهدا ... ينظر فيهم واحداً فواحدا
حتى بدا شيخ عظيمُ اللحيةْ ... واسمه سوادُ بن غزيةْ
وقيل بل عكاشةُ بن محصنِ ... أنعِمْ بكلٍّ منهما من محسنِ
وقال مهلاً إنني مظلومُ ... ظلمتني وإنني مكلومُ
لما غدوتَ تذكر الحتوفا ... تصفنا عند الوغى صفوفا
ضربتني في القومِ عمداً بالعصا ... وكنتُ فيمن طاعَ لا فيمن عصا
فأعطني من نفسكَ القصاصا ... يا مَنْ تعلِّمُ الورى الإخلاصا

فنزل النبي عن جوادِهِ ... سبحانَ من أنصفَ في عبادِهِ
ودفعَ العصا لما يرادُ ... وقال قُمْ فاقتصَّ يا سوادُ

وأخـذَ الـشيخُ العـصا وقـالا ... في مـشهدٍ يـستنطقُ الأهـوالا
ضـربتني بهـا وإنـي حاسـرُ ... فاكـشِفْ لكـي أقـتصَّ إنـي نـاطرُ
ورفـعَ الـنبيُّ مِـنْ ثيابِـهِ ... قـد كـانَ حقـاً وأنـا أولى بِـهِ

مَـن لم يـشأ يعـالجُ المظالمـا ... لم يـأتِ في يـومِ المعـادِ سـالما
وكـشف الـنبي منـه صـدرا ... وكلُّهـم يـشتاقُ ذاكَ الـصدرا
وصـرخَ الأصـحابُ يـا للـهولِ ... الأمـرُ جِـدٌّ لـيس محـضَ قـولِ

وعنـدما تأكـد القـصاصُ ... ولم يكـن مـن أمـرهِ منـاصُ
رمـى العـصا وعـانق الرسـولا ... والقـومُ يرقبونَـهُ ذُهـولا
وقبّـل الـنبيَّ في إشـفاقِ ... مواصـلَ البكـاءِ بالعنـاقِ

وذرفـتْ مـن عينـهِ الـدموعُ ... واختلطـتْ في حبـهِ الـضلوعُ
ومـسحَ الـصدرَ الـشريفَ دمعـاً ... لبيـكَ حقـاً طاعـةً وسمعـاً
فـسبَّحَ الـنبيُّ في جـلالِ ... يـا ربِّ أنـتَ عـالمٌ بحـالي

وقـالَ مـا شـأنكَ يـا سـوادُ ... قـد حـارَ في قِـصاصكَ العبـادُ
فقـال مهـلاً يـا معلـم الـورى ... دعوتَنـا وحـضرَ الـذي تـرى
رجـوتُ بـين كـسلي وجـدِكْ ... يمـسُّ جلـدي رغبـاً بجلـدِكْ
مـن دفئـهِ ألـتمسُ الوداعَـا ... فـالآنَ يـا دنيـا ألا وداعـا

متـى أُراه يُـدركُ الوصـولُ ... الوصـلُ لا ينالـهُ الخجـولُ
الحـبُّ لا يحلـو بـلا جنـونِ ... ولـيسَ يكفـي نظـرُ العيـونِ
أردتـهُ العنـاقَ والتقبـيلا ... وشـيِّعوني بعـدها قتـيلا

❖ ❖ ❖

القصيدة العاشرة
كفارة الغلطان

لم يكن في فتياه للناس يشبه ما تراه الآن من سلوك كثير من الوعاظ والمرشدين الذين يتخيرون أشد الأمر عنتاً ويفتون به للناس، على أساس أن الأشد والأعنت هو الأقرب إلى مرضاة الله، بل كان واسع الحلم واثقاً في روايته عن الله سبحانه، وكان لا يتردد أبداً في اختيار ما هو للناس رشد ويسر وخير، ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وهي أصول الشريعة المبنية على قوله عز من قائل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وهو ما خاطب به أمته من بعده: (يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا، ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه، وإن الله لا يمل حتى تملوا) وكان إذا قرأ سورة العصر قال: (لن يغلب عسر يسرين) في إشارة إلى تنكير اليسر وتعريف العسر، فلا يزداد المعرف بالتكرار، ولكن المنكَّر يزداد، ومعنى ذلك أن التيسير أصل في الشريعة، وشواهد ذلك في حياته ﷺ أكثر من أن تحصى.

في فتياه للناس كان يختار اليسر والمرحمة، ومع علمه ببأس الله وعظيم نقمته كان أكثر حديثه عن رحمته وسعة عفوه، ذلك أن الأمر بين الله وعباده مبني على المسامحة، أما بين العبد والعبد فإنه مبني على المشاححة، وهذا المعنى من غلبة الرحمة حمل إماماً جليلاً هو سفيان الثوري على اختيار رأي فريد حين قال: "الصغائر كل ما كان بينك وبين الله، والكبائر كل مل كان بينك وبين الناس".

وهذا القول وإن لم يحظ بشهرة وقبول بين أهل العلم، ولكن تدل له آيات كثيرة ونصوص نبوية صحيحة، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ومن ذلك الأحاديث الصحيحة المتواترة في غفران الله سبحانه للمؤمن كل ذنب حتى يعود كيوم ولدته أمه، كما في الصحيح لمن صام رمضان إيماناً واحتساباً، ولمن قام ليلة القدر، ولمن حج فلم يرفث ولم يفسق، ولمن قال: لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه، والغريق شهيد، والحريق شهيد، والمطعون شهيد، والمبطون شهيد، وغفر لرجل كان يتجاوز عن المعسرين فينظرهم، وغفر لبغي من بغايا بني إسرائيل رأت كلباً يلحس الثرى من العطش.

وفي البخاري: حديث رجل قارف الكبائر جميعاً، وركب المآثم جميعاً، وأوصى بنيه أن يحرقوا جثمانه بعد موته ويذروه في الأرض خوفاً من حساب الله يوم القيامة فلما أقام بين يديه قال له: ما حملك على ذلك؟ قال: خوفي من حسابك. قال: أعلمت أن لك رباً تخشاه؟ قال: نعم. قال علم عبدي أن له رباً يخشاه فخاف حسابه، غفرت له على ما كان منه.

أحاديث الترغيب والرجاء كثيرة، ولا يراد هنا إنكار أحاديث العذاب، ولكن أعتقد أن فكرة العفو والانتقام تدور على قاعدة أن ما ورد في الغفران متجه إلى حقوق الله، أما حقوق العباد فلا بد من التقاص فيها حتى يرضى الخصيم.

القصة بين يديك أدب نبوي رفيع، يحملك مباشرة إلى مقاصد الشريعة، في فهم يختلف جذرياً عن أساليب الوعظ السائد، حيث يجعل مقصد الحكم الشرعي غاية ومراداً، ليس مجرد تطبيقه، إنها درس بالغ الدلالة أن ينظر المرشد في غايات الحكم الشرعي وليس فقط في إنجاز صوره، وأن تتجه الأمة

إلى تطبيق مقاصد الحدود بأي طريق كان وليس مجرد الإصرار على إنفاذها كما لو كان إنفاذ الحد نفسه قصداً أصم، تنتهي غاياته عند حدود الرهق دون النظر في حقيقة القصد الذي أرادته الشريعة بتشريع الحدود.

روي أن عيسى بن مريم كان دائم البشر، وكان يحيى بن زكريا دائم الحزن، فلقيه يوماً فقال له: يا عيسى!! مالي أراك دائم الفرح والبشر؟ كأنك آمن من عذاب الله!! فقال له عيسى بن مريم: وأنت يا يحيى! مالي أراك دائم الحزن؟؟ كأنك قانط من رحمة الله؟! فأوحى الله تعالى إليهما أن أحبكما إلي أحسنكما ظناً بربه.

إنها دعوة لدراسة مقاصد الحدود وإحيائها في مسار عملية التشريع.

عن سعيد بن المسيب أن أعرابيا أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ينتف شعره فقال يا رسول الله أتيت أهلى فى رمضان فأمره أن يكفر كفارة الظهار[1].

عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أن رجلاً أتى رسول الله (فقال يا رسول الله هلكت. قال: «وما أهلكك»). قال: أتيت أهلى في شهر رمضان. قال: «هل تجد رقبة»). قال لا. قال: «فصم شهرين متتابعين»). قال لا أطيق الصيام. قال: «فأطعم ستين مسكينا لكل مسكين مدا»).

قال ما أجده. فأمر له رسول الله (بخمسة عشر صاعاً. قال: «أطعمه ستين مسكينا»). قال والذى بعثك بالحق ما بالمدينة أهل بيت أحوج منا. قال: "انطلق فكله أنت وعيالك فقد كفر الله عنك[2].

(١) سنن البيهقي، ج٤، ص ٢٢٥.

(٢) سنن الدارقطني، ج٢، ص٣٢٧.

كفارة الغلطان

رَوى الإمـامُ الحـافظُ البُخـاري ... في الجـامعِ الـصحيحِ للأخبـارِ
كـذا أبـو داود في سـننِهِ ... في بـاب فـضل المـصطفى ومنِّـهِ

أتـى إليـهِ شـاكياً أعرابـيْ ... وبَـدأ الُـصُّراخَ عنَـد البـابِ
هلكـتُ.. أرشـدني إلى الخـلاص ... أصـبحت محتاجـاً إلى قـصاص
أوبقـني الـشقاق والعـصيان ... يـا ويـح مـن أغـره الـشيطان
دعـوتُ زوجـتي إلى فراشـي ... وفجـأةً ودوَنمـا نِقـاشِ

قـد زَّيـنَ الـشيطانُ لـي جِمَاعَهـا ... في رَمَـضانَ عاقـداً وقاعَهـا
هلكـتُ أفـتِني أتيـتُ عامِـدا ... أهلكـتُ نفـسي وعِيـالي قاصِـدا
قُقـال قُـمْ وَيْحـكَ أعِتْـقَ رَقَبـهْ ... فقـال مـالي غـير هَـذي ٱلُرقَبـهْ

فقـالَ صُـم شـهرينِ مَوْصُـولينِ ... سـتينَ يومـاً دونَ أيِّ مَـيْنِ
فقـالَ لَـمْ أصِـبْر علـى الـصيام ... في رمَـضانَ فـاكفني ملامـي!!
ضَّـيعْتُ فـرضَ اللهِ في الجمَاعـهْ ... ولـيسَ لـي في الـصَّوم صبُر سَاعهْ

فقـالَ قُـمْ فـأطعِمِ الطعَامـا ... سـتينَ مـسكيناً مِـنَ اليتـامَى
فقـالَ مَـا عنـدي طعـامٌ آكلـهْ ... ولـيسَ لـي شُـغْلٌ مفيـدٌ شـاغِلُهْ

فـضَحِكَ الـنَّبيُ مِـنْ جِدالِـهِ ... سُـبحَانَ مَـنْ تحتـارُ في فِعالِـهِ
ارْقُـب لعـلَّ اللَـه يـأتي بِالمـدَدْ ... لعلَّنـا نُـرزَقُ مِـنْ فَـيْضِ الـصَّمَدْ
فلَمْ يَطُلْ بِهِ المقامُ عندَ المُصْطَفى ... حتَّـى أتـاهُ الـرِّزقُ رَغـداً وكفَـى

جَفْنَـــةُ سَـــعْدٍ وَتفـــيضُ لحْمـــا ... رزاً يَطيـــبُ مـــأكلاً وهـــضْما

فأقبـــلَ الـــنَّبيُ في إشـــرَاقِ ... وقـــالَ للغـــارِقِ في الإمْـــلاقِ
جاءَتـــكَ كفـــارَةُ مـــا أتاكـــا ... وربُّـــكَ الـــرَّزاقُ لا ينـــسَاكا
قُمْ طُفْ على ستينَ مسكيناً بِها ... كفـارةَ التفـريطِ والأمـرُ انتهَـى

فقـــالَ مهـــلاً يـــا رسُـــولَ اللـــه ... ويـــا أمـــانَ النـــاسِ يـــومَ اللهِ
واللِـــه مـــا بيـــتٌ بِلابَتَيْهـــا ... أشـــدُّ منِّـــي حاجـــة إليهـــا
لا يـصلحُ الجُوعـان أنْ يـصَّدَقا ... وعينُـهُ في الطَعْـمِ قـدْ تُـشرْدِقَا
الأقرَبُـــونَ بالعطـــاءِ أولَـــى ... ومَـــنْ لنـــا سِـــوَاك أنـــتَ المَـــوْلَى

فَـضَحِكَ النَّبِـيُ وَهـوَ يأخُـذُهْ ... ضِـحكاً شَـديداً وبَـدَتْ نَوَاجِـذُهْ
سُـبْحَانَ مَـنْ ميَّـزَ في عِبَـادِهِ ... حِـسَابُهُ عَطْـفٌ علـى وِدَادِهِ
وقـــال خـــذها طيبـــاً حـــلالا ... عـــساك تـــستقيم فيهـــا حـــالاً
عـساك تـستعف عـن شـرادك ... ويكثـــر الله بهـــا مـــن زادك

فالمـــصطفى معلـــم الأنـــام ... وربنـــا الغـــني ذو الإكـــرام
حاشـاه أن يحتـاج منـا الـصدقة ... وقـد كفـى الإنـسان منـذ خلقـه
ســـخره حقـــاً كمـــا أرادا ... وهـــو المـــراد في الـــذي أرادا
خلقهـــم ليربحـــوا عليـــه ... وزادهـــم ورزقهـــم لديـــه
فـارفق بهـم ولا تكـن لئيمـا ... واطلـب عطـاء ربـك الرحيمـا

❖ ❖ ❖

القصيدة الحادية عشرة
في بيت النبوة

عائشة حبيبة رسول الله ﷺ، زوجته وحلاله، لم يكن يتمالك عنها حباً، وكان إذا قسم بين نسائه النفقة يقول: اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك.. ـ يقصد الحب وميل القلب ـ.

أخبار حبه لها شهيرة مستفيضة، لكن أيمكن أن يكون سبب ذلك كله محض كونها أشدهن جمالاً وأعظمهن موهبة؟..

تحاول هذه الأرجوزة أن تكشف عن الأسباب الأخلاقية التي جعلت ميل النبي ﷺ إلى عائشة أكثر من أخواتها من أمهات المؤمنين.

في أرجوزة سابقة قدمنا طرفاً ظاهراً من حبه للسيدة الطاهرة عائشة، وهي معان أوردتها السنن النبوية الكريمة، وها نحن نعود هنا إلى طرف آخر من علاقته ﷺ بعائشة، وهي أدق تفاصيل الحب الحلال الذي كان يعمر بيوته الطاهرة ﷺ.

في موقف فريد يرسم النبي الكريم ملامح حب فريد خالد، يمنحه لشريكة كفاحه عائشة الصديقة فحين عودته من حجة الوداع أدرك أنه مقبل على لقاء ربه، واشتد به المرض حتى أقعده عن كثير من شأنه، وبدأ يوصي أصحابه وصية الوداع.

شيء دقيق كان يؤرق حياته، وهو مستقبل زوجاته الطاهرات، فكان كثير الإيصاء بهن والوصية لهن، وقال لأصحابه: إن أقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكن نفقة لأمهات المؤمنين؟؟...

ومن أجل ذلك كان عبد الرحمن بن عوف ﷺ يدفع لكل واحدة منهن نفقة سنة كل شهر، وذلك لتبقى بيوتهن عامرة بالفرح والبهجة والأنس.

وكان ﷺ يحمل مشاعر خاصة للسيدة عائشة بنت أبي بكر، فقد تزوج نساءه جميعاً ثيبات ـ مطلقات أو أرامل ـ وكان معنى إحسانه وعطفه عليهن واضح بيّن، أما عائشة فقد تزوجها وهي بنت تسع سنين، وهاهو يفارقها وهي بنت ثمانية عشر عاماً، تتفجر حيوية وشباباً، وهي على قدر من الموهبة والذكاء والجمال كبير، ولكنها وَهبَتْ شبابها كله لرسول الله، وها هي على وشك أن تستأنف حياتها الطويلة وحيدة حزينة دون ريحانة قلبها وقرة فؤادها الذي سيمضي إلى الرفيق الأعلى، وقد حرم عليها الزواج من بعده.

ولاشك أن المجهول الذي ينتظرها كان يعصف بفؤادها البريء، وقد حانت ساعة الحقيقة حيث ستفقد عيناها وجه حبيبها محمد أينما ولت وجهها مع أنه يسكن فؤادها ولكن من دون أن تستطيع الأنس بدفئه وحنانه، ومن دون أن تشرق أيامها بمحياه.

وكان كلما اشتد به المرض يسأل صحبه من حوله: (أين أنا اليوم) استعجالاً لليلة عائشة؟ فقد كان يرقبها وينتظرها، يرجو أن يعوضها بعض ما ستفقده، واستأذن أن يمرض في بيت عائشة، واستجابت نساؤه الطيبات لهواه، وقد كان استئذانه منهن لطفاً وأدباً وحسن عشرة، وهكذا فقد سارعن في هواه.

وحين أوى إلى بيت عائشة كانت عيونه المريضة تحمل إليها عذره وأشواقه وحنينه، وكانت تلزمه ليل نهار حتى عرفت كثيراً من معارف الطب، وكانت تمسح جبينه براحتها وتضمه إليها في مشهد يرسم أرقى ظلال الحب والرحمة.

وحين دنت ساعة الفراق، وصار النبي الكريم موقناً من دنو أجله، وصار أهل بيته يتحدثون عن صحوة الموت في وجوه بني هاشم، كان من المتوقع أن يختار النبي الكريم رحيلاً هائلاً يليق بمنزلته العظيمة، وكان يحق له أن يختار، كان بإمكانه مثلاً أن يقول احملوني إلى الكعبة المشرفة، إلى غار حراء، إلى مراقد شهداء أحد، إلى الروضة المشرفة، ولكن خياره كان شيئاً آخر، وما بين صحوته وغفوته، كان ينظر إلى وجه حبيبته عائشة، وعمد أن يخالط ريقه ريقها، حين نظر إلى السواك في يد أخيها عبد الرحمن، فجعل ينظر إليه وإلى عائشة، وكأنها أدركت مراده فأخذت السواك ولينته بريقها العذب، ثم دفعت به إليه، فاستاك به استياكاً شديداً، وهي ترقبه بمدامع عينها وخفق قؤادها، ثم اختار أن يكون فراقه للدنيا على صدرها الحنون، وودع الدنيا كما تقول عائشة: بين سحري ونحري!..

لقد أراد أن يرسم ألق حب فريد، حب بذوره في الأرض وثماره في السماء، حب يرسم للعالمين ملامح العاطفة الصادقة والحب الشريف الذي ينبغي أن ينشأ على فراش الحلال، وتسعد به الأسرة المسلمة.

وفي لفتة أخرى لصفائه وإشراقة قلبه، فإنه أيضاً أوصى أن يدفن في بيت عائشة، فالأنبياء يدفنون حيث قبضوا، وبذلك فقد شاء أن ينزرع في فؤادها حباً وقلباً، وأن ينزرع في دارها جسداً طيباً طاهراً تحوفه البركات والرحمات والنور.

روى أبو داود عن عائشة ﵂ أنها كانت مع النبيِّ ﷺ في سفر قالت: فسابقته فسبقته على رجليَّ، فلما حملت اللحم سابقته فسبقني: فقال: (هذه بتلك السبقة).

وروى مسلم عن أنس أن جاراً لرسول الله ﷺ، فارسياً، كان طيب المرق، فصنع لرسول الله ﷺ، ثم جاء يدعوه، فقال: (وهذه؟) ـ أي لعائشة ـ فقال: لا، فقال رسول الله ﷺ: (لا)، فعاد يدعوه، فقال رسول الله: ﷺ (وهذه؟)، قال: لا. قال رسول الله ﷺ: (لا)، ثم عاد يدعوه، فقال رسول الله ﷺ (وهذه؟) قال: نعم في الثالثة، فقاما يتدافعان حتى أتيا منزله.

وروى البخاري عن عائشة: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر على النبي ﷺ وأنا مسندته إلى صدري، ومع عبد الرحمن سواك رطب يستن به، فأبده رسول الله ﷺ بصره، فأخذت السواك فقضمته، ونفضته وطيبته، ثم دفعته إلى النبي ﷺ فاستن به، فما رأيت رسول الله ﷺ استن استناناً قط أحسن منه، فما عدا أن فرغ رسول الله ﷺ رفع يده أو إصبعه ثم قال: (في الرفيق الأعلى)، ثلاثا، ثم قضى، وكانت تقول: مات بين حاقنتي وذاقنتي.

وفي رواية أخرى للبخاري عن عائشة ﷺ قالت: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر، ومعه سواك يستن به، فنظر إليه رسول الله ﷺ، فقلت له: أعطني هذا السواك يا عبد الرحمن، فأعطانيه، فقضمته، ثم مضغته، فأعطيته رسول الله ﷺ فاستن به، وهو مستند إلى صدري.

وروى البخاري عن عائشة ﷺ قالت: مر عبد الرحمن بن أبي بكر، وفي يده جريدة رطبة، فنظر إليه النبي ﷺ، فظننت أن له بها حاجة، فأخذتها، فمضغت رأسها، ونفضتها، فدفعنها إليه، فاستن بها كأحسن ما كان مستناً، ثم ناولنيها، فسقطت يده ـ أو: سقطت من يده ـ فجمع الله بين ريقي وريقه في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة.

في بيت النبوة

رَوى أئِمـــةُ الهُـــدى الثقـــاةُ ... في سُـــنَنٍ تُرجَـــى بهـــا النجـــاةُ
بـــأنَّ ســـيِّدَ الـــورى محمـــدا ... أطهـــرُ خلـــقِ اللهِ قلبـــاً ويَـــدا
أعظـــمُ خلـــقِ اللهِ في الـــضراعةْ ... بوجهـــهِ تُلـــتمسُ الـــشفاعةْ

دنـــا إلى مـــولاهُ وتـــدلَّى ... ونـــورهُ في قلبـــهِ تجلّـــى
المـــصطفى ترقبُـــهُ الآفـــاقُ ... ودمعـــهُ وقلبـــهُ خفـــاقُ
يـــشتاقُ أنْ ينـــاجيَ الخلاقـــا ... يـــسابقُ الليـــلَ بهـــا ســـباقا

فـــؤادهُ معلـــقٌ بـــاللهِ ... وذاكَ شـــأنُ العابـــدِ الأواهِ
لكنَّـــهُ بـــالرُّغمِ مـــن إشـــراقِهِ ... ورغـــمَ مـــا نعلـــمُ مـــن أشـــواقِهِ
أحـــبَّ مـــن دُنيـــاكمُ أشـــياءَ ... الطيـــبَ والـــصَّلاةَ والنِّـــساءَ

كـــانَ يفـــيضُ قلبـــهُ حنانـــا ... لأهلـــهِ وبيتـــهِ إحـــسانا
يغمـــرهُنَّ بـــصنوفِ حُبِّـــهِ ... يطلُـــبنَ منـــهُ نفحـــاتِ قربِـــهِ
مـــصرّحاً بحبـــهِ الحـــلالِ ... علـــى الـــذي يرضـــاهُ ذو الجـــلالِ

زوجتُـــهُ حبيبـــةُ الفُـــؤادِ ... رجـــاؤهُ مـــنْ ســـائرِ العبـــادِ
يـــشتاقها باللَّيـــلِ والنَّهـــارِ ... وقلبـــهُ يفـــيضُ بالأســـرارِ
وربَّمـــا سَـــابَقها فـــسُبقا ... وربَّمـــا سَـــابقها فـــسَبقا
وكـــانَ إنْ دعـــوهُ للطعـــامِ ... يقـــولُ للقـــومِ بـــلا مَـــلامِ
آتـــيكمُ إذنْ أنـــا وعائـــشةْ ... أعاذَهـــا الـــرحمنُ كـــلَّ فاحـــشةْ

وقــد رآهــا تــنهسُ الــذِّراعا ... بــشفتيها فمــضى سِــراعا
وصــارَ مــنْ نفسِ المحــلِّ يــنهسُ ... لريقهــا الطــاهرِ صــارَ يلمــسُ

وعــرفَ الأصــحابُ ذاكَ الحُبَّــا ... إن تــروه تكتــبُ عنــهُ الكتبــا
وأصــبحوا يهدونَــهُ الهــدايا ... في دارهــا يــستقبلُ العطايــا

ولم تكــنْ زوجاتُــهُ الكــرامُ ... يكــتُمْنَ مــا يظهــرهُ الغــرامُ
وهــنَّ قــدوةُ الــورى عفافــا ... حيــاؤهُنَّ يمــلأ الأكنافــا
يــروينَ للــورى حــديثَ حبّــهِ ... غرامُــه يحملُــهُ في قلبــهِ

بيوتُــهُ يعمرهــا بالحــبِّ ... إشــراقُه يــضيءُ كــلَّ دربِ
الأســودانِ.. منتهــى إدامِــهِ ... لا شــيء غــيرَ الحــبِّ في مُدَامِــهِ

تغمــرُهنَّ عينُــه ترفُّقــاً ... ويتجلَّــى نــورُه تــدفُّقاً
الحجــراتُ ترتجــي وداده ... تغمرهــا الأيــامُ بالــسعادةْ

وعنــدما دنــا إليــهِ الأجــلُ ... وصــارَ يــدري أنَّــهُ ســير حلُ
واشــتدَّ فيــهِ ألمُ الــسقامِ ... حَرَمــه مــن طيِّــبِ المنــامِ
وصــارَ يرجــو ربَّــهُ الرفيقــا ... لم يــذكرِ الفــاروقَ والــصدّيقا

لكنَّــهُ تــذكرَ الحبيبــةْ ... عائــشةَ الــودودةَ القريبــةْ
وهكــذا أرادَ أنْ يكونــا ... في حبِّــه مُكرمــاً مــصونا

مــا اختــارَ أنْ يمــشي للــوداعِ ... ملتزمــاً بــالرُّكنِ والمــساعي
أو مــنْ حــراءِ النُّــورِ أو مُزدلفــهْ ... أو بــالبقيعِ أو بــوادي عَرفــهْ

أوى إلى صـــدرِ شـــريكةِ الكفـــاحْ عائـــشةَ يُـــدملُ عنـــدها الجـــراحْ

مـــن ثغرِهـــا تنـــاولَ الأراكـــا طوَّفَـــــهُ بفمـــــهِ اســـــتياكا
وقـــالَ في حُجرتهـــا ادفنـــوني أحـــــبُّ أنْ تظـــلَّ في جفـــوني
وفـــوقَ صـــدرها الحنـــونِ أملـــى وقـــالَ أســـألُ الرفيـــقَ الأعلـــى

رسمَهَـــا قـــصةَ حـــبٍّ طـــاهرهْ تتـــصلُ الـــدُّنيا بهـــا بـــالآخرهْ
معلـــــمُ الرَّحمـــــةِ بالنـــــساءِ صـــلّى عليـــهِ اللُـــه في الـــسماءِ
صـــلّى عليـــهِ اللهُ مِـــنْ معلِّـــمِ وموئـــلَ الهُـــدى لِكُـــلِّ مُـــسلمِ

❖ ❖ ❖

القصيدة الثانية عشرة
سليمان والهدهد

سليمان والهدهد دروس تربوية تقدمها الحكمة العالمية في هيئة روايات أسطورية، ولكن كل حكاية منها تحمل مثلاً تربوياً، وفي الواقع فإن الفلسفة والأدب يتناوبان خدمة مقاصدها، فما من أدب إلا وهو يحمل مضامين فلسفية، كما أن الفلسفة لا يمكن أن تَعْبر إلا على مركب من الأدب، وكذلك فقد جاء النص القرآني طافحاً بالمثل في الأدب والتربية، ومع أن القصة في القرآن كانت تجيء مجملة في كثير من الأحيان ولكن جهود علماء التفسير كانت تغني القصص القرآني بما تضيف من شروح السنة المطهرة، وبما يروى من حديث بني إسرائيل، ولا بد أن نضيف في زماننا ما أضافه علم التاريخ الحديث من وسائل معرفية، أضافت ظلالاً كثيرة على القصص القرآني، على أني أعتقد أن أكثر ما يهم في ميدان الحكمة هو ما يضيفه الإنسان، مما يؤكد حكمة القصة ومقصدها ودلالاتها في الواقع، وهكذا تغدو قصص الأنبياء مدارس حكمة ونور، تتعاون أجيال من الحكماء على إغنائها وإروائها وبعثها في الواقع.

المشهد بين يديك يعكس حال الأمة عندما تعيش في الأوهام، وتناطح المعالي، تدعي مجد الآباء وهي منه في غربة، لها ألقاب الملوك وما لها ممالكهم، تدعي ما لا تملك وتتكلف ما لا تطيق

سليمان خبر بشر وسيرة مكللة بأنباء الغيب، ميثولوجيا ناطقة، ظلالها مرسومة على جناح الغيب، بطلها من عالم الماصدق وشخوصها من

عالم المتصورات، وغاياتها في عالم المفهومات والإنسان هو الذي يجعل هذا الغيب بسبيل رشده أو بسبيل غيه.

حكاية سليمان والهدهد موعظة واضحة في أذن المغرور، وهي تختصر حصاد الغرور الذي نعيشه منذ قرون، حين نتحدث عن ماض مجيد ونزعم ريادة العالم وقيادة الأرض ونحن لعبة الأمم، سليمان والهدهد تكرار لقول الشاعر العربي في الأندلس لما رأى الدعاوى الفارغة يتنطح لها رجال صغار:

مما يزهدني في أرض أندلسٍ قيام مقتدر فيها ومعتضدِ
ألقابُ مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسدِ

الهدهد يشرح لك الحكاية كلها في قصة طريفة:

سليمان والهدهد

عنـــدي لكـــم حكايـــةٌ طريفـــةْ ... نظمتُهـــا في جلـــسة لطيفـــةْ
سمعتُهـا مـن صـاحبِ الـسماحةْ ... مفـتي الـشآمِ سـيِّد الفـصاحةْ

بينـا سـليمانُ الحكـيمُ يُرشـدُ ... في مجلـسٍ جـاءَ إليـهِ الهدهـدُ
وقـــالَ إنـــي راغـــبٌ بالبركـــةْ ... لا تحـرمِ المـشتاقَ تلـكَ البركـةْ

أمُّ العيـــالِ صـــنعتْ طعامـــا ... حبـــاً وترجـــو مـــنكمُ الإكرامـــا
يـــسعدني أن تحـــضرَ الوليمـــةْ ... ورغـــبتي بفـــضلكم قديمـــةْ

فـــإن نكـــنْ في أصـــلنا ديوكـــا ... تـــشريفكُمْ يجعلُنـــا ملوكـــاً
فاحـــشرْ جنـــودَ الملـــكِ للغـــداءِ ... والجـــنَّ والأنـــسَّ بـــلا اســـتثناءِ
واجتَمِعُـــوا بـــشاطئ الجزيـــرةْ ... لتـــشهدوا الوليمـــةَ الكـــبيرةْ

وبعـــدَ أنْ تـــدفَّقَ الجمـــوعُ ... واشـــتدَّ فـــيهِمْ ســـغبٌ وجـــوعُ
وأصـــبحوا يرتقبـــونَ المائـــدةْ ... تجرُّهـــا خيـــولُ عـــزمٍ مـــاردةْ

وبينمـــا هُـــمْ يرقبـــونَ المـــددا ... يرجونَـــهُ لحمـــاً ورزاً رغـــدا
إذْ أقبـــلَ الهدهـــدُ في ســـعادةْ ... يحمـــلُ في منقـــارهِ جـــرادهْ
وقـــالَ أيُّهـــا الجمـــوعُ مرحبـــا ... حللـــتُمْ أهـــلاً وزرتم طيبـــا
أهـــلاً بكـــم ... وقـــذفَ الجـــرادةْ ... في البحـــرِ واســـتفتحَ بالـــشهادةْ
تفـــضَّلوا يـــا أيهـــا الكِـــرامُ ... كلـــوا هنيئـــاً نَـــضَجَ الطعـــام
فمـن أصـابَ اللحـمَ مـنكم سَـبقا ... ومَـنْ يفُتْـهُ اللَّحـمُ نـالَ المرقـا

فهـــذهِ الـــصورةُ يـــا صـــديقي ... وصـفٌ لحالِنـا علـى التحقيـقِ
لنـا مـن الإسـلام قِـشْرٌ ظـاهرُ ... نظنُّـــهُ الكمـــالَ وهـــو قاصـــرُ
إسـلامُنا ضَـربٌ مِـنَ الأمـاني ... قرآنُنـــا نتلـــوهُ كالأغـــاني
نتلـوه بالـسَّبع علـى أصـولهِ ... ونحـنُ معرضـونَ عـن سـبيلهِ

المـسلمونَ ظلمـوا الإسـلاما ... وقـــدَّموهُ للـــورَى كلامـــا
إنْ ذُكِـرَ الـنبيّ هـاموا حبًّـا ... وحـــالُهُمْ يُنكـــرُ ذاكَ الحبَّـــا
تمـــسكوا بزِّيـــهِ ومـــشيتهْ ... وأعرضـوا عـن هديـهِ وسـنَّتِهْ

وعنـدهُمْ مـنَ القُـرانِ رسمُـهُ ... ومـا مِـنَ الإسـلامِ إلا اسمُـهُ
ورتَّلـــوهُ بالغـــداةِ والعـــشيْ ... ولم يعـوا مـن أمـرهِ العظـيمِ شَـيْ

يزينـونَ الجلـدَ والقرطاسـا ... ويفقـدونَ الفهـمَ والإحـساسا
قد ضيعوا المعنى وصانوا الورقا ... كمـن أضـاعَ اللحـمَ إلا المرقـا
فـافهم أُخـيَّ مـا أراد الهدهـدُ ... نـصَحَنا.. ومَـنْ يَجِـدَّ يجـدُ

❖ ❖ ❖

القصيدة الثالثة عشرة
وتغلبك نساؤك؟

كان رسول الله صلى الله عليه أرحم الناس بالنساء، ولا زالت في مسمع العالم وصيته الباقية للناس التي أطلقها قبل ساعات قليلة من رحيله: استوصوا بالنساء خيراً.

عرفت نساؤه حبه وإحسانه، وكن يعشن في كنفه في شدة من العيش ورغد من الحب، وعسر في النفقة ويسر في الرضا والغفران.

روين من حياته الظاهرة أعذب أيامه وأطيبها، وصار الناس يقصدونهن بعد رحيل رسول الله ليستمعوا إلى أصول بناء الحياة السعيدة على أسس من الحلال وقرة العين.

إنني لا زلت أدهش لما روته أمهات المؤمنين الطاهرات من خصائص حياته الكريمة عليه الصلاة والسلام، ويدهشني جرأتهن ووضوحهن في رواية ما يكون في الخدور على فراش الحلال، وطالما تساءلت: ما الذي يدفع أمهات المؤمنين لرواية هذه التفاصيل الدقيقة من الحب والنوى والشوق والغرام والهيام مما كان بينهن وبين رسول الله؟ وهن أكثر نساء العالمين طهراً وحياء وصدقاً؟

لقد كانت الرسالة واضحة، أردن أن يقلن للناس: إن المؤمن أيضاً صاحب قلب وحب، وصاحب نوى وجوى وأنه يعرف الغرام والهيام ويعرف الفرح والمحبة، ويعرف الشوق والتوق، ويعرف الدموع الساخنة والأفئدة الدافئة، وإن علينا أن نملأ فرش الحلال من عواطف المحبة.

إنه ما إن تنطفئ شمعة الحب الحلال حتى توقد شمعة الخطيئة ويتحول المحروم إلى الموائد الحمراء، لقد قالت أمهات المؤمنين ما سمعنه

من رسول الله: يا معاشر الرجال تزينوا لنسائكم فإنهن يعجبهن منكم ما يعجبكم منهن، وإن المرأة والرجل خلقا ليعيشا لحظة الحب النظيف الذي يجعل الحياة أكثر طهراً وسمواً.

هذا ما كان يجري كل يوم في بيت رسول الله، وهذه القطعة جزء من ذلك الحب الخالد.

عن جابر قال: أذن لأبى بكر رضى الله عنه فدخل ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له فوجد النبى ـ جالسا وحوله نساؤه وهو واجم ساكت قال فقال عمر: لأقولن شيئا أضحك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يا رسول الله لو رأيت ابنة خارجة سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها قال فضحك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال: «وهن حولى كما ترى يسألننى النفقة». قال: فقام أبو بكر رضى الله عنه إلى عائشة فوجأ عنقها وقام عمر رضى الله عنه إلى حفصة فوجأ عنقها وكلاهما يقول تسألن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما ليس عنده فقلن: والله لا نسأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما ليس عنده ثم اعتزلهن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شهرا أو تسعة وعشرين يوما ثم نزلت هذه الآية (يا أيها النبى قل لأزواجك) حتى بلغ (للمحسنات منكن أجرا عظيما) قال: فبدأ بعائشة رضى الله عنها فقال: «يا عائشة إنى أحب أن أعرض عليك أمرا فأحب أن لا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك». قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية فقالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوى بل أختار الله ورسوله. أسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت قال: «لا تسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها إن الله لم يبعثنى معنتا ولكن بعثنى معلما ميسرا»[1].

(١) السنن الكبرى للبيهقي، ج٧، ص٣٨.

وتغلبك نساؤك

روى الإمـــام مـــسلمٌ عـــن جـــابرِ ... عـــن عمـــرَ الفـــاروقِ ذي المـــآثرِ
وكـــان عـــم المـــصطفى لحفـــصةْ ... وقـــد روى لنـــا تمـــام القـــصـــةْ

أتيـــت حفـــصةً سمعـــت صـــخبا ... وحفـــصة تلـــمُّ ذاك الـــصخبـــا
فقلـــت يـــا حفـــصةُ مـــا دهـــاكِ ... مـــن الـــذي يـــصخبُ في فنـــاكِ
فلـــم تـــزد أن أومـــأتْ إلـــيَّ ... بـــأن طـــه المـــصطفى لـــديَّ
وعنـــده نـــساؤه جميعـــاً ... يـــا ســـعد مـــن قـــصده شفيعـــاً

رأيـــتهن كلَهـــن حولـَــهُ ... نـــساؤه... ويرتجيـــن نَولَـــهُ
طوَّقْنَـــهُ حلقـــةً فحلَقـــةْ ... يـــسألْنَه مـــن العطـــاءِ النفقـــةْ
لكـــل زوجـــةٍ هـــوى ومطلـــبُ ... ومـــا لهـــن في ســـواه أربُ
والمـــصطفى في وسْـــطهنَّ ســـاكتُ ... يـــسمع صـــوتهنَّ وهـــو صـــامتُ
يـــسألْنَهُ العطـــاءِ وهـــو واجـــمُ ... والله بالحـــالِ العـــسيرِ عـــالمُ

أضـــحكني هـــدوؤه وصـــمتهُ ... ولا يكـــفُّ صـــوتَهن صـــوتُهُ
فقـــال لـــي أتـــضحكُ اســـتياءَ ... وأنـــت تـــدري الـــبيرَ والغطـــاءَ
فقلـــت مهـــلا يـــا رســـول اللهِ ... ويـــا أمـــان النـــاس يـــوم اللهِ
أضـــحكني بـــأنَّ كـــسرى فارســـا ... وقيـــصراً ومثلَـــه المقوقـــسا
يخـــشون منـــك جيـــشك الجـــرارا ... وعزمَـــه الجبـــار والقهـــارا
وأنـــت تخـــشى حـــرَدَ النـــسوانِ؟ ... إن طلبـــوا مـــا لـــيس بالإمكـــانِ

لـو قـد رأيـتني أعـدُّ الفلقَـــةْ ... إذ ســألتني أم حفــص النفقــة
لطمْتهـا طرحـتُ منهـا القُرطـا ... فـسقطت مـن بـأس كفـي أرضَـا
أريتهـــا مـــن شـــدتي صـــروفاً ... أنـــا الـــذي أَقـــتحم الحتوفِـــا
وصـــار صـــوبهن يبـــدي شـــررا ... يـــرمقهنَّ غـــضباً وشـــزرا
ففزعـــت منـــه النـــساءُ فرَقـــا ... أمـــضينَ ســـائر المـــساءِ أرَقَـــا

فابتـــسم الـــنبي ثـــم قـــــالا ... يـا ويـح مـن قـد أفـزعَ الرجـالا
تحـــسبُها أمـــارة الرجولـــة ... مـــا هـــذه يـــا صـــاح بالبطولـــة
فخيركـــم أخْيركـــم لأهلِـــهِ ... وإنـــني لخيركـــم لأهلِـــهِ
ولـــيس يغلـــبن ســـوى الكـــريم ... وإنمـــا يُغلَبـْـــن مـــن لئـــيمِ

وأعلـــن الـــنبي للنـــساء ... تخـــييره لهـــن في المـــساء
فمـــن تـــشأ تغـــدو إلى عيالهـــا ... ومـــن تـــشأ تختـــاره أهـــلا بهـــا
فـــدمعت عيـــونهن شـــوقاً ... يرجونـــه حبـــاً لـــه وتوقـــاً
وقلـــن لا والله لا نختـــار ... إلاك أيهـــا الـــنبي المختـــار
جـــوارك المـــأمول رغـــم الفقـــر ... أشـهى لـدينا مـن كنـوز القـصر
نختـــار منـــك قلبـــك الحنونـــا ... ترمقنـــا بحبـــك العيونـــا

فحـــسِّن الـــسيرة في عيالـــكْ ... ليُحـــسن الـــرحمن في مآلـــكْ
فـــإنهنَّ عنـــدكمْ عـــوانُ ... والمـــؤمنُ الحـــقُّ لهـــا معـــوانُ
تبـــارك الـــرحمن فيمـــا ألهمـــا ... وبـــورك المختـــار فيمـــا علمـــا
رســـالةَ الرحمـــة بالنـــساءِ ... ورحمـــة المـــولى مـــن الـــسماءِ

❖ ❖ ❖

القصيدة الرابعة عشرة
ما أبدلني الله خيرا

خديجة حبه الأول، منحها شبابه وقلبه وفؤاده، ولم يكن يكتم حبه إليها، وقد فاض فؤاده إليها بالنوى والجوى والغرام والهيام، وكان لا يكتم ذلك الشوق ويقول إن الله رزقني حبها، كانت أول قلب اطمأن بالإيمان، وقالت له حين ارتعد فؤاده: كلا والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتحمل الكل وتنصر المظلوم وتعين على نوائب الدهر، وحين اختارت أن تقف إلى جواره في رسالته وقفت راسية كالجبال وأدهشت بصمودها الأبطال.

رحلت خديجة حين كان في أشد الحاجة إليها تنكأ جراحه وتكف عناءه وتشد من أزره، ومع انه استأنف حياته كرجل واقعي يحتاج إلى النساء، وتزوج بكراً وثيبات،ولكنه لم ينس يوماً حبه الكبير الذي كان يغلب عليه حياته كلها، وكان يتغزل بحبه لها في كل مناسبة، وإذا كان هذا الغزل يرضي قلبه ويهدئ روحه ولكنه كان في الواقع يعصف بقلب عائشة التي لم تتمكن على الإطلاق من دفع غيرة النساء حتى عن امرأة رائعة رحلت من العالم وبقيت ذكراها الطيبة.

المدهش في الرواية أن السيدة عائشة لم تكتم هذه المشاعر الهائجة، ونقلت للناس أدق تفاصيلها على الرغم من أنها كانت تتلقاها قاسية مرة، ولكنها أمانة العلم، رجاء أن تعمر بيوت الأزواج برسالة المحبة والوفاء تأسياً بالرسول الكريم، ورغبة في قول الحقيقة مهما كانت قاسية مريرة.

عن عائشة قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما غرت على خديجة قط، وما رأيتها قط، ولكن كان يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة، ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق

خديجة، وربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد. وفي رواية قالت: «وتزوجني بعدها بثلاث سنين، وأمره ربه عز وجل: أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب» قال في رواية «وأمره الله عز وجل أن يبشرها ببيت من قصب، وإن كان ليذبح الشاة، فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن».

وفي أخرى «وكان إذا ذبح الشاة يقول: أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة، قالت: فأغضبته يوما، فقلت: خديجة عجوز، فقال: إني رزقت حبها».

وفي أخرى قالت: «استأذنت هالة بنت خويلد ـ أخت خديجة ـ على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فعرف استئذان خديجة، فارتاع لذلك، فقال: اللهم هالة بنت خويلد، فغرت، فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين، هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيرا منها» أخرجه البخاري ومسلم.

ولمسلم: قالت: «ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، لكثرة ذكره إياها، وما رأيتها قط، وقالت: لم يتزوج النبي على خديجة حتى ماتت».

وفي رواية الترمذي قالت: «ما غرت على أحد من أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما غرت على خديجة، وما بي أن أكون أدركتها، وما ذاك إلا لكثرة ذكر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لها، وإن كان ليذبح الشاة، فيتتبع بها صدائق خديجة، فيهديها لهن».

وفي أخرى قالت: «ما حسدت امرأة ما حسدت خديجة، وما تزوجني رسول الله إلا بعد ما ماتت، وذلك أن رسول الله بشرها ببيت في الجنة من قصب ـ يعني: من قصب اللؤلؤ ـ لا صخب فيه ولا نصب»[1].

(١) جامع الأصول لابن الأُير، ج٩، ص ١٢١.

ما أبدلني الله خيراً

روى إمـــام العلمـــاءِ أحمـــدُ ... في جـامع الأخبـارِ وهـو المُـسنَدُ
عـــن أمنـــا عائـــشة الـــصديقة ... تـــروي لنـــا بلغـــة دقيقـــة
بـــأن ســـيد الـــورى محمـــداً ... أصـفى الـورى قلبـاً وأنـداهم يـدا
كانـــت لـــه ربيبـــة كريمـــةْ ... هالـــةُ مـــن خديجـــة الرحيمـــةْ

فـــسمع الـــنبي صـــوت جلَبَـــةْ ... فخفـــقَ القلـــبُ وقـــال مرحبـــا
لا هـــمَّ أرجـــو أن تكـــون هالَـــةْ ... خديجـــةٌ حـــبي ولا محالَـــةْ
أبـــصرُها فـــأذكر الحبيبـــةْ ... ذكـرى الحبيـبِ عطـرَهُ وطْيبَـهْ
ربيـــبتي أذكرُهـــا صـــغيرةْ ... لهـــا مواهـــب الوفـــا وفـــيرة

فـــأدركتني غـــيرةُ النـــسوانِ ... خاطبتـــه بجـــارحِ اللـــسانِ
فقلـــت مـــا تـــذكر مـــن عجـــوزِ ... حمـــراءُ شـــدقاها بلـــون الكـــوزِ
قد هلكتْ في الدهر في عمرٍ عفـا ... أبـدلك الـرحمن خـيراً ووفـا

فقـــال والخـــاطر يـــستعيدُ ... أيامَهـــا .. وحزْنُـــه شـــديدُ
والله كـــلا... مـــا بُـــدِلتُ خـــيراً ... حبيـــبتي وعـــشقُ قلـــبي دهـــراً

قـد صـدقتني إذ قلانـي النـاسُ ... وآمنـت بـي والمنـى إحـساسُ
وأنفقـــتْ مـــن مالهـــا حـــلالا ... ونـــصرتْني نـــسبـــاً وآلا
وقـد حبـاني الله منهـا الولـدا ... فـلا تـسلْ عـن والـدٍ مـا ولـدا

طربـــه بـــذكرها عجيـــب ... كـــأن ذكـــر اسمهـــا طبيـــب

أحبهـــا فحـــرم النـــساء ... وظـــل يهـــدي نحوهـــا الثنـــاء
ثيبـــة تكـــبره كـــثيرا ... أيتامهـــا أرهقنهـــا تعـــسيرا
لكنـــه ظـــل بهـــا وفيـــاً ... يحنـــو عليهـــا بكـــرة عـــشيا
ولم يـــشأ يجرحهـــا في كلمـــة ... أفردهـــا حبيبـــة محترمـــة
يختارهـــا مـــن ســـائر النـــساء ... يفردهـــا بالحـــب والثنـــاء

وراح يقـــضي الليـــل في الـــدعاءِ ... لهـــا ومـــا لهـــا مـــن الأبنـــاءِ
وفـــاض في الثنـــاء والمـــديحِ ... واهـــاً علـــى فـــؤاديَ الجـــريحِ
ولم يـــزل يمـــدحُها ويطنِـــبُ ... وددتُ لـــو تلـــدغ رجلـــي عقـــربُ
(نقل فؤاداً حيث شئت من الهوى ... مـــا الحـــب إلا للحبيـــب الأول
كم منـزلٍ في الـدهر يهـواه الفتـى ... وحنينـــه أبـــداً لأدنـــى منـــزل)

ولم تـــشأ عائـــشة الـــصديقـــةْ ... تكتمُهـــا عـــن الـــورى حقيقـــةْ
بـــرغم مـــا تحويـــه مـــن إهانـــةْ ... رجـــاء أن تـــؤديَ الأمانـــةْ

ليعـــرف الـــشبابُ معنـــى الحـــبَّ ... وكيـــف يـــستقر عهـــد القلـــب
وفـــاؤه وحبـــه عجيـــــبُ ... يعرفـــه البعيـــد والقريـــب
حـــيَّ علـــى الوفـــاء والطهـــارةْ ... ونعـــم مـــا أعلـــن مـــن بـــشارةْ

❖ ❖ ❖

القصيدة الخامسة عشرة
على أطلال خديجة

خديجة حكاية حبه العظيم، إنها قصة حب زرعت في الأرض وأورقت في السماء، حين اختارته ورغبت فيه تقدم نحوها خاطباً كسائر الشباب، لم يكن في خطوبتهما نوى وجوى، وقصص بطولة ومغامرة، كان زواجاً عادياً، فيه مفارقات ذات دلالة فالزوجة أكبر من الزوج بخمسة عشر عاماً وقد تجاوزت الأربعين، ولها ثلاثة ربائب، ولديها تجربتان سابقتان في الزواج فقد أنجبت هنداً من زوجها الأول عتيق بن عائذ المخزومي، وأنجبت هالة من زوجها الثاني أبو هالة واسمه هند بن زرارة بن النباش، وقامت على رعاية أيتامها بعد رحيل أزواجها، في صورة للمرأة الجادة المسؤولة، ولم تلبث بعد زواجها من الرسول الكريم أن أدركت ميوله العميقة نحو التأمل والخلوة، واعتزاله في غار حراء، إلى أن أشرق الوحي في قلبه وعاد يبشر الناس بالنبوة والرسالة.

أما الصدود الذي لقيه بعد الرسالة والمواجهة مع قريش فقد كان عناء آخر أضيف إلى حياتهما، ولكن الزوجين تمكنا مع ذلك كله من صناعة بيت من الحب والحنان تشرق فيه ملائكة النور وتخفق فيه الأفئدة ويمتلئ بالجوى والنوى والغرام والهيام والحب والوله.

المدهش أن هذا الحب لم يمت بموت خديجة بل تحول إلى صفاء آخر يمسح حزن القلب، ويضيء شمعة الأمل، وبعد عشر سنوات تفجر هذا الحب من جديد عند ضريح الطاهرة خديجة.

القصيدة تأملات يوم الفتح الأعظم في مقبرة الحجون حيث ثوى قبر خديجة الطاهر.

على أطلال خديجة

روى الإمـــام الحـــافظ الرشـــيدُ ... ابـــن هـــشام العـــارف الحميـــدُ
في ســيرة الــنبي طــه المــصطفى ... أفــضل خلــق الله بــراً ووفــى

وفـــاؤه العظـــيم يـــومَ مجـــدهِ ... ومـــا بـــدا مـــن حفظـــه لعهـــدهِ
في يـــوم فـــتح مكـــة المعمـــورةْ ... وحولـــه رجالـــه المنـــصورةْ
قـــد نـــصر الله بـــه الحقوقـــا ... وقـــد أذلَّ الباطـــلَ الزهوقـــا
وقـــد حنـــى لربـــه الجبينـــا ... يكـــاد أن يلامـــسَ العُثنونـــا
تعلقـــت بحبـــه الأبـــصـــارُ ... وأنـــشدت في حبـــه الأشـــعارُ
وفُرشـــتْ لـــه بهـــا الأرائـــكُ ... ونثـــرتْ في دربـــه الـــسبائكُ
يرجـــون أن ينـــزل في حمـــاهمُ ... فـــيملأ الأيـــام مـــن ذكـــراهمُ
لكنـــه قـــد أدرك الأغراضـــا ... ومـــر ولَّـــى عـــنهمُ إعراضـــاً
وعـــاف مـــنهم تلكـــم القـــصورا ... بـــالرغم ممـــا ملؤوهـــا حـــوراً

مـن يـا تـرى الـسعيدُ في الحجـاز ... ينـــزل عنـــده الـــنبي الغـــازي
يـــا ســـعدُ مـــن يـــزوره الرســـولُ ... وذكـــره مخلـــــد جليـــلُ
وراح يعـــدو والألـــوفُ تنظـــرُ ... والناقـــةُ العـــضباء فـــيهم تخطُـــرُ

حتـــى أتـــى مقـــبرة الحجـــونِ ... وقطـــع الظنـــون بـــاليقينِ
وقـــال بالعبـــارة البهيجـــةْ ... هنـــا مقـــام زوجـــتي خديجـــةْ
شـــريكةُ الكفـــاح والعنـــاءِ ... لأجلـــها أضْـــرع في دعـــائي
هنـا انـصبوا لـي خيمـةَ انتـصاري ... وأنـــشدوا لهـــا مـــن الأشـــعارَ

أشـــتاقها....مـــا أروع التلاقـــي ... بعـد الـسنين العـشرِ مـن فراقـي
مـــا غـــاب عـــني ذكرُهـــا الطهـــور ... يـــضيء قلـــبي مـــن ثراهـــا نـــورُ

كانـــت معـــي شـــريكة الكفـــاحِ ... وإنهـــــا شـــــريكة النجـــــاحِ
أراد أن يهـــدي لهـــا التهـــاني ... كلمـــــة في منتهـــــى الحنـــــانِ
قـد شـاركتني في العنـا والـصبرِ ... وإنهـــا اليـــوم شـــريكُ النـــصرِ

أرادهـــــا حكايـــــة الوفـــــاءِ ... وصـــلة الأرض مـــع الـــسماءِ
حكايـــة في الحـــب والطهـــارةْ ... أدركهـــا الأبـــرار بالإشـــارةْ
ظلـت تطـوف في الخيـالِ ذكـرى ... والنـاس تـستعيد تلـك الـذكرى

حـــيَّ علـــى الوفـــاء مـــن محمـــدِ ... معلـــم الهـــدى لكـــل مرشـــدِ
نـــصبها خيمـــة عفـــو طـــاهرةْ ... تـــسعى إليهـــا كـــل روحٍ حـــائرةْ
بـــالعفو والحنـــان والإحـــسانِ ... والنـــور والإكـــرام والبيـــانِ

❖ ❖ ❖

القصيدة السادسة عشرة
جويريــة

خزاعة قبيلة عربية، انقسمت على نفسها فكان فيها من يحب رسول الله وفيها من يحاربه، وقد اضطر النبي الكريم لمواجهتها في غزوة بني المصطلق المعروفة، ومع أن الحرب انتهت بانتصار ساحق لرسول الله عليهم وعلى عادة العرب في الجاهلية تم أسر النساء سبايا بيد الصحابة.

آلمه هذا المشهد ولم يرض أبداً أن تكون رسالته العظيمة امتداداً لعادات الجاهلية المظلمة في استرقاق الأسارى بعد الحروب مهما كانت عدالة هذه الحرب، ومهما كان سلوك الجاهلية يتورط في هذا.

لقد بدا له أن يسلك سبيلاً غير متوقع لينتزع شوكة الكراهية بين المتحاربين، واختار أن يطوي صفحة الحرب ويفتح صفحة الحب، واختار من السبايا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار وأبوها الحارث كان على رأس محاربيه، ولكنه في سياق غير مألوف توجه إلى ابنته جويرية التي كانت أسيرة في سهم ثابت بن قيس وقيل بل كانت في سهم دحية بن خليفة الكلبي، وليس لنا أن ننكر أثر لحاظها الحادة القسمات في خفق قلبه، وهو ما وصفته عائشة ببراعة وصراحة، وفي مزيج من الحب والسياسة والرحمة أعلنها على رؤوس الأشهاد زوجة له، ونودي في الناس لقد أصهر النبي صلى الله عليه في بني المصطلق فأكرموا أحماء رسول الله!!

كان من ثمرات هذا الزواج المبارك أن انطفأت نار الحرب وتوقدت شمعة الحب، وبدأت حملة من الاعتاق والرحمة، واكتملت بالمصالحة مع

والـد جويريـة ودخولـه في الإسـلام مـع أبنائـه عبـد الله وعمـرة وجويريـة وأم حقيق.

قالت عائشة (وشهادتها هنا أوثق ما يطمئن إليه من الشهادات نظراً لما صرحت بها ضدها من غيرة هائجة) قالت: ما من امرأة أعظم بركة في قومه من جويرية لقد أعتق مائة من قومها ببركة زواجها من رسول الله.

عن عائشة قالت: «لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بني المصطلق وقعت جويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار في السهم لثابت بن قيس بن الشماس ولابن عم له، فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة جميلة حلوة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم لتستعينه على كتابتها قالت: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب الحجرة فكرهتها، وعلمت أنه صلى الله عليه وسلم يرى فيها ما رأيت، فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس، أو قالت: لابن عم له، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم أستعينه قال: «فهل لك في غير ذلك؟». قالت: وما هو ؟ قال: «أقضي كتابك وأتزوجك». قالت: نعم، يا رسول الله، قد فعلت، وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج جويرية ابنة الحارث، فقال الناس: أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسلوا ما في أيديهم، قلت: فلقد أعتق بتزويجه صلى الله عليه وسلم إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها»[1].

(١) الخرائطي في اعتلال القلوب.

جويريه

روى أبـــو داود في ســـننِهِ ... في بـاب فـضل المـصطفى ومنِّـهِ
عــن أمنــا عائــشة الــصديقةْ ... تـروي لنـا الأمـر علـى الحقيقـةْ
بلغـــه أن بـــني المـــصطلقا ... قــد نقــضوا ميثاقَــه الموثَّقــا
ابــن أبــي ضــرار كــان الحارثــا ... يقـــودهم مفرطـــاً وعابثـــاً
أمنيــة الحــارث في قتــل الــنبيْ ... يـا بـؤس مـا أمَّـل ذلـك الغـبيْ
فـــأعلن الـــنبيُّ في الـــبلادِ ... مناديـــاً حـــي علـــى الجهـــادِ
فهـــرب الحـــارث دون الأمنِيَـــةْ ... وتم أســـر بنتِـــه جويرِيـــَـهْ
جويريــهْ بنــت زعــيم المــصطلقْ ... الحـارث المغـوار ذو الـسيف الفَلِـقْ
وأصــبحت في الأســر دون عــيسِ ... سبيـــــةً لثابـــت بـــن قـــيسِ
يــا حــسنها نجــلاءَ في الــصبايا ... أمـــيرةً حـــسناءَ في الـــسبايا
تـسألهم عـن وجـه طـه المـصطفى ... تريـــد أن تلقـــاه بـــراً ووفـــا

فغْـــرتُ منهـــا أنهـــا تلقـــاهُ ... وخفـــت أن يـــرى الـــذي أراهُ
فقلـــت لا والله لـــن يراهـــا ... جمالُهـا سـبحان مـن أعطاهـا
أعرفـــه يقـــدَّر الجمـــالا ... إذا تـــدلَّى نحـــوَه حـــلالاً
قعـدتُ بالبـاب علـى الحـصيرةْ ... هيـا اغربـي.. أشـغالُه كـثيرةْ
وقلـتُ دلوهـا علـى بيـت عمـرْ ... تـشكو لـه مـا نابهـا مـن الـضررْ

لكنهـــا قـــد ســـلكتْ ورائـــي ... دربـــاً إليـــه خـــارج الفنـــاءِ
قالــت أنــا ابنــة الأمــير حقــاً ... ولا يحـــــل أن أذوقَ الرقـــــا
ولـــست أرضـــى أن أُرى ســـبيَّةْ ... ففكـــني... مـــا شـــئته مـــن ديَّـــةْ

أنـــا أؤدي ثمـــني كتابـــاً ... قـــرأت قرآنـــك بابـــاً بابـــاً
يعجـــبني قرآنـــك الحكـــيمُ ... أرشـــدني بيانـــه العلـــيمُ
وأدهـــشت بـــصوتها الحـــضورا ... ومـــلأت قلـــب الـــنبيْ ســـرورا
ســـيدة ليـــست كمـــا النـــساءُ ... شـــجاعةٌ تقـــول مـــا تـــشاءُ
ومثلـــها يليـــق بـــالنبوةْ ... أمَّـــا تعلـــم الـــورى الأخـــوَّةْ

وقـــال مهـــلاً أيهـــا الفتـــاةُ ... أرجـــو بـــأن تنـــصفك الحيـــاةُ
أنـــا أؤدي ثابـــت بـــن قـــيسِ ... مـــا شـــاءه مـــن إبـــل وعـــيسِ
فهـــل تـــوافقين في زواجـــي ... ترفقـــي بقلـــبي الزجـــاجي
خطبهـــا كريمـــة رشـــيدةْ ... وشـــاءها أميـــرة ســـعيدةْ
أكرمهـــا وزفَّهـــا عروســـا ... يزغـــردون هودجـــاً وعيـــسا
وزغـــردت لعرســـها العـــشائرُ ... وانطلقـــت في ركبهـــا البـــشائرُ

قـد أصـهر الـنبي بنـتَ المـصطلقْ ... فأحـــسنوا إكـــرامَ آل المـــصطلقْ
وأطلقـــت مـــن أجلـــها الـــسبايا ... وزغـــردت بالفرحـــة الـــصبايا
ولم تكـــن بنـــتٌ أشـــد بركـــةْ ... في قومهـا مـن وجـه تلـك البركـةْ
نـــالوا بهـــا حريـــة ومجـــداً ... وأشـــرق الإيمـــانُ فـــيهم ســـعْدا
فـافهم نكـاح المـصطفى النـساءَ ... مـــنحهن المجـــد والعليـــاءَ
جعلـــهن للوئـــام سببـــا ... والطيبـاتُ قـد رضـين الطيبـا

❖ ❖ ❖

القصيدة السابعة عشرة
أم الدرداء

أبو الدرداء عويمر بن مالك حكيم هذه الأمة كما سماه النبي الكريم، كان من الخزرج وحين دخل أهل المدينة في الإسلام دخل أبو الدرداء في التأمل والدراسة ليقف على حقيقة أمر هذا الدين، ومع أن سائر أهله دخلوا في الإسلام ولكنه ظل يتأمل في أمر هذه الرسالة ويراقب سلوك النبي الكريم، لقد كان يعلم أنه يعاهد الله في ولائه واتباعه، وأنه قرار لا يمكن الرجوع عنه أبداً، وأنه مدعو لقول كلمة الحقيقة.

وبعد مشوار طويل في البحث والدراسة أعلن أبو الدرداء دخوله في الإسلام.

وحين اشرق قلبه بالإسلام واختار عقيدة الحق فإنه لم يختر سلوكاً وسطاً بين بين، وأدرك أن هذا الدين لا يصلح له إلا من أحاط بكل جوانبه، واختار أن يأخذ الكتاب بقوة، وأعرض عن الدنيا بما فيها، واختار جانب الله والدار الآخرة.

ولكن هذه الروح الرهبانية لا تصلح في الإسلام، والإسلام دين من لون آخر لا يرضى غنوصية الهند ولا رهبنة الكهنوت عند النصارى، ولا خمول المتصوفة في الإسلام، إنه لغة تامة للجمع بين الدنيا والآخرة، يكرره المسلم في كل صلاة بقوله: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

في تجربته الأولى في كنف النبوة أسس أبو الرداء مع جماعة من أصحابه أول حركة رهبنة وتطهير روحي في الإسلام، ولكن من حسن الحظ أن ذلك جرى في عصر رسول الله وحياته، وقال فيها كلمة الفصل.

عن أبي جحيفة السوائي قال: «آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاما، فقال: كل. قال: فإني صائم. قال: ما أنا بآكل حتى تأكل. قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم قال: نم فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نم فلما كان من آخر الليل، قال سلمان: قم الآن. فصليا. فقال له سلمان: إن لربك عليك حقا ،ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا ،فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: صدق سلمان»[1].

عن أنس أن نفرا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال بعضهم لا أتزوج النساء وقال بعضهم لا آكل اللحم وقال بعضهم لا أنام على فراش وقال بعضهم أصوم فلا أفطر فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما بال أقوام يقولون كذا وكذا لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني[2].

(١) صحيح البخاري، ج١، ص٩١.

(٢) سنن النسائي، ج٦، ص٣٧.

أم الدرداء

روى البخاري عن أبي جحيفةْ ... في باب فضل من أعزَّ ضيفهْ
سلمانُ قد زار أبا الدرداءِ ... فلم يجد بها سوى النساءِ
فاستقبلتهم بثياب رثةْ ... قد أكلتْ من جانبيها العثةْ
سألها سلمانُ في ارتيابِ ... عن سبب الرثاث في الثيابِ
قالت وعينها تفيض حسرةْ ... واختنقت في خافقيها العبرةْ
أخوك في الله أبو الدرداءِ ... آماله في رغد السماءِ
ليس له في هذه الدنيا أربْ ... قد باعها من حطب ومن ذهبْ
ومعه من الصحاب نفرُ ... في الغار إما سبحوا أو كبروا
فامتدح الأصحاب ذاك الزهدا ... واعتبروه حكمة ورشْدا
وذكروا ذلك للنبيَّ ... عن صومه وزهده القويَّ

وأطرق النبي منها وجلاً ... مستغرقاً مسبحاً محوقلا
لقد شكته ببليغ الأدبِ ... تطلبُ حقها بدون صخبِ
يا ويحكم إن عليكم حقاً ... للنفس والزوجة مستحقا
يا معشر الرجال فافهموها ... فإنها أعراضكم صونوها
وراح يتلو سورة الحياةِ ... مناديا حي على الصلاةِ
وحينما تحاشد الحضورُ ... يسَّاءلون ما الذي يدورُ
خطبهم مبشرا نذيراً ... بصوته موضحا جهيراً
ما بال أقوام أووا للغارِ ... يغادرون سنة المختارِ
أحدهم ليس ينام أبداً ... يمضي الليالي بالقيام سرمدا

وآخـــر يـــصوم كـــل الـــدهرِ ... لا ذاق إلا التمـــر عنـــد الفطـــرِ
وثالـــث لا يقـــرب الزواجـــا ... ورابـــع لا يأكـــل الـــدجاجا

يـــا ويحكـــم أنـــا الـــنبي لا كـــذبْ ... المـصطفى أنـا ابـن عبـد المطلـبْ
أخـــشاكم لله في النـــاس أنـــا ... أتقـــاكمُ في الحـــق أدنـــى للمنـــى
لكـــنني أصـــوم ثـــم أفطـــرُ ... أقـــوم بعـــض الليـــل ثـــم أفـــترُ
وآكـــل اللحـــمَ علـــى التـــوالي ... وأرغـــبُ النـــساء مـــن حـــلالِ
أحـــب مـــن دنيـــاكم أشـــياءَ ... الطيـــب والـــصلاة والنـــساءَ
وكـــل مـــن عـــن ســـنتي ســـير غبُ ... فلـيس مـني... والحقـوق تطلـبُ

تزينـــوا لهـــن في الحـــلالِ ... وألبـــسوهن حلـــى الجمـــالِ
يطيـب في الـدنيا نـشيد الحـبِّ ... فأبـصروا في الحـب خفـق القلـبِ
يعجـــبهن مـــنكم الأناقـــةْ ... حيـــا الـــذي يـــريهم إشـــراقهْ
حيـــاه ربـــي مرشـــد الأنـــامِ ... إلى ريـــاض الحـــق والـــسلامِ
أســـعدهم بفـــضله أزواجـــاً ... ودخـــل النـــاس الهـــدى أفواجـــاً
صـــلى عليـــه الله مـــن معلـــمِ ... وموئـــل الهـــدى لكـــل مـــسلمِ

❖ ❖ ❖

أم هانئ

أم هانئ واسمها فاختة بنت أبي طالب امرأة جليلة كانت حاضرة في حياة رسول الله من البداية إلى النهاية فهي بنت عمه ورفيقة صباه، ولم تكن مواهبها لتخفى على أحد، وربما كانت أول قلب خفق له فؤاد النبي الكريم.

لم يكن آنذاك يدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكنه كان بشراً من الناس وله قلب وحب وفؤاد وجوى، وحين أكملت ملاعب الصبا صورتها الجميلة في عيني ابن عمها، صارت رجاءه من بين سائر النساء وكأي فارس شهم ذهب إلى أبيها وتقدم لخطوبتها!

كان يعلم مكانه عند عمه أبي طالب وهو ما يعرفه الناس جميعاً، ولكن لأمر يعلمه الله لم يقدر لهذا الزواج أن يتم، واعتذر أبو طالب بأنه قد أخطبها لهبيرة المخزومي، وأن الأمر قد أوشك أن يتم، وليس لدينا روايات تشرح موقفه وموقفها حين أخفقت هذه الخطوبة، ولا شك أنه قد تصدع فؤاده، ولكنه رضي بقدر الله، ومضت أم هانئ إلى قدرها برضا وقرة عين، وعاشت في كنف هبيرة زمناً، تحفظ لرسول الله أطيب الود، وتقوم بواجبها في بناء أسرتها مع هبيرة المخزومي.

بعد نحو أربعين عاماً تحقق للرسول الكريم فتح مكة المكرمة، وهو أعظم أيام دهره، وخلالئذ هرب هبيرة المخزومي وقرر أن يمضي في حرب الإسلام إلى النهاية، ووجدت أم هانئ نفسها أيماً بلا زوج ومعها أطفالها.

حين تم له أمر الفتح الأعظم ونصب خيمته عند قبر خديجة في الحجون، غدا من صباحه إلى دار أم هانئ فاغتسل وصلى عندها الضحى وسألها عن واقعها بعد فرار زوجها، وكانت واضحة صريحة في أنها مع الله ورسوله وأنه لا سلطان لمشرك على مؤمنة.

بعد انقضاء عدتها أرسل النبي الكريم من يخطب له أم هانئ، وهنا كانت هذه الحكاية:

القصيدة الثامنة عشرة
أم هانئ

عن أم هانئ أنه خطبها رسول الله من عمه أبي طالب، وخطبها هبيرة بن عمرو المخزومي فزوجها أبو طالب هبيرة فعاتبه رسول الله في ذلك فقال أبو طالب: يا بن أخي، إنا قد صاهرنا إليهم، والكريم يكافئ الكريم، ثم فرق الاسلام بين أم هانئ وهبيرة فخطبها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت: كنت أحبك في الجاهلية فكيف في الاسلام ؟ وإني امرأة مصبية (ذات صبيان)، فأكره أن يؤذوك فقال: خير نساء ركبن الابل صالح نساء قريش أحناه على ولد[1].

عن أبي هريرة أن النبي {صلى الله عليه وسلم} خطب أم هانئ بنت أبي طالب فقالت يا رسول الله إني قد كبرت ولي عيال فقال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} خير نساءٍ ركبن الإبل ثم ذكر مثل حديث يونس غير أنه قال أحناه على ولد في صغره وأرعاه على زوج في ذات يده.

عن عبد الله بن الحارث أن أم هانئ بنت أبي طالب أخبرته، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان نازلا عَنْدها يوم فتح مكة، فجاء يوما بعد ما ارتفع النهار، فأمر بغسل، فسكب له، ثم ستر عليه، فاغتسل، فقام، فكبر، ثم ركع ثمان ركعاتٍ[2].

---

(١) أخرجه الحاكم، ج٤، ص٥٣.

(٢) سنن النسائي، ج١، ص٩٦.

عن أم هانئ الأنصارية أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتزاور إذا متنا، ويرى بعضنا بعضاً، فقال: "يكون النسم طيراً يعلق بالشجر إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس جسدها"[1].

(١) رواه ابن عبد البر في الاستيعاب ج٢ ص١٣٩ عن أم هانئ الأنصارية ولكن الطبراني رواه عن أم هانئ القرشية والله أعلم.

أم هانئ

روى الإمـــام أحمـــد الـــشيباني ... في مـــسند الآحـــاد والمثـــاني
عـــن الـــصحابيةِ أم هـــانيْ ... بنـــتِ أبـــي طالـــبَ ذي الأشـــجانِ

عاشـت مـع الرسـول طـه طفـلاً ... في دارِ عمـــه نـــدى وأهـــلاً
ذكراهمـــا ملاعـــب الطفولـــةْ ... أروع مـــا يمكـــن أن تقولـــه
طفـــلان في عائلـــة رشـــيدةْ ... تحـــدوهما القـــرائن الـــسعيدةْ
وحـــين وفَّـــى مبلـــغ الرجـــالِ ... ونفـــسه تـــشتاق للآمـــالِ
خطبهـــا مـــن عمـــه حـــلالاً ... ولم يكـــن مـــرادُه محـــالاً

وشـــاءت الأقـــدار أن تُزوجـــا ... هـــبيرةً، وأن يُـــصبِرَّ لججـــاً
ومـــرت الأيـــام في عنـــادِ ... ورزقـــت فيهـــا مـــن الأولادِ

وبعـــدما تم لطـــه الفـــتحُ ... وأشـرق الفجـر وطـل الـصبحُ
وفـــر منهـــا كـــافراً هـــبيرةْ ... تأيمـــتْ منـــه، وعافـــت غـــيرَهْ
وبـــادر الأصـــحاب يـــذكرونها ... إلى الـــنبي زوجـــةً يرجونهـــا
الفـــضلُ والحـــسنى لأم هـــاني ... جمالُهـــا جـــل عـــن التبيـــانِ
قـد حـضها الـرحمن عقـلاً وافـراً ... وجادهـــا الغيـــث نـــوالاً زاخـــراً
تأيمـــت مـــن زوجهـــا هـــبيرةْ ... وقـــد كفاهـــا شـــره وخـــيرَهْ
وفـــر مـــذعورا إلى نجـــرانِ ... يـــصر أن يـــسجد للأوثـــانِ

فـدمعت عـينُ الـنبي المـصطفى ... أوفـى البرايـا بالحنـان والوفـا

وقـــال نعـــم المـــرأةُ الكريمـــةْ صـــالحة الأحـــوال مـــستقيمةْ

وأرســـل البـــشيرَ في تطلابهـــا يهنيـــكِ طـــه المـــصفى خطَّابُهـــا
وعنـــدما وصـــلها البـــشيرُ مناديـــاً قـــد أزف الـــسرورُ
تعثـــرتْ مـــن فـــرح رجلاهـــا ودمعـــتْ مـــن حرقـــةٍ عيناهـــا
يـــا ســـعد مـــن تـــدعى إلى المعـــالي أمـــاً لـــدى معلـــم الأبطـــالِ
محمـــد صـــفي خلـــق اللهِ وحجـــة الخلـــق أمـــام اللهِ

وبعـــد أن تأملـــت طـــويلا وقلَّبـــت أمورهـــا تفـــصيلاً
ودمعـــت عيونهـــا اشـــتياقا آلمـــها تقـــررُ الفراقـــا

تقـــول بلـــغ الرســـول حـــبي شـــرفني أن قـــد ســـعى في طلـــبي
قـــد كـــان عنـــدي أفـــضلَ الأنـــامِ قبـــل الهـــدى فكيـــف في الإســـلامِ
وإنـــه أحـــبُّ مـــن عيـــوني تـــسكنُ مقلتـــاه في جفـــوني
منحتُـــه شـــوقي وحـــبي رغَبـــاً أُجلُّـــه مكرَّمـــا وطيبـــاً
لكـــنني أمٌ لهـــا أيتـــامُ وكافـــل اليتـــيم لا ينـــامُ
وحقهـــم وحقُّـــه عظـــيمُ بـــأي حـــق منهمـــا أقـــومُ؟

إن قمـــت في حقـــوقهم بحـــقٍّ ضـــيعته وضـــاع مـــني حقـــي
أو قمـــت في حقوقـــه جميعـــاً ضـــيعت أيتـــامي إذن ســـريعاً
وحينمـــا أخـــبره الرســـولُ برفـــضها أدرك مـــا تقـــولُ
وكـــان جالـــسا فقـــام مـــسرعاً وقـــال يبغـــي رشـــداً لمـــن وعـــى
خـــير نـــساءٍ قـــد ركـــبن الإبـــلا نـــسا قـــريشٍ ناقـــةً أو جمـــلا

أحنى الورى على يتيمٍ عندها ... وأحفظ الورى لمال زوجها
ما فوقها فضلا سوى العذراءِ ... لمريم الوحيدةِ استتثنائي

فانظر إلى مكانة الكفيلةْ ... أم اليتامى درة جليلةْ
قد أعرضت عن أعظم الأماني ... رجاء أن تحنو على الصبيانِ
فزادها الله تعالى شرفاً ... وأصبحت قرة عين المصطفى

رسالة لكل أم حاضنةْ ... ترعى بنيها بالعيون الآمنةْ
أنا وكافل اليتيم بشرى ... مشتركان صحبة وبرا
ترجو ثواب الله في المعادِ ... وهديَه سعياً إلى الرشاد
وأكمل الصلاة والسلامُ ... على نبي دينه الإسلامُ

❖ ❖ ❖

القصيدة التاسعة عشرة
ميمـــونـــة

ميمونة بنت الحارث الهلالية، سيدة من عيون قريش اشتهرت بجمالها وذكائها، كانت زوجة لعمرو بن عقدة ثم لأبي رهم قيس بن عبد العزى العامري، وقيل بل حويطب بن عبد العزى ومع أنها أنجبت منهما ولكن كتب الله لها الفراق.

وميمونة واحدة من أربع نساء وصفهن رسول الله بالأخوات الأربع، أجمع الناس على كمالهن وجمالهن، وهن بنات هند الجرشية من زوجيها الحارث وعميس، وقد اختطفت كل واحدة منهن قلب زعيم كبير، فالأولى أم الفضل تزوجت العباس بن عبد المطلب والثانية سلمى تزوجت حمزة بن عبد المطلب والثالثة أسماء بنت عميس تزوجت جعفر بن أبي طالب ثم أبا بكر الصديق ثم علي بن أبي طالب، أما الرابعة فهي ميمونة فقد كان مرادها أسمى من ذلك كله فقصدت مجد الأرض والسماء، وحين خطبها العباس لرسول الله كانت على بعير فقالت: الجمل وما حمل لرسول الله.

وكان اقترانه بها صلى الله عليه وسلم يوم عمرة القضاء، في إشارة حكيمة منه صلى الله عليه وسلم لقريش بأنه لا يريد حرباً ولا دماء، وإنما اختار أن يصهر إليهم، ويبني الوداد والمحبة، وكان قد أعد عرساً عظيماً لميمونة بعد عمرة القضاء دعا إليه كل شباب قريش، ولكن قريشاً رفضت أن تسمح له بذلك فخرج طائعاً من مكة وأقام فرحه وعرسه في سرف وهي ربوة جميلة في ضواحي مكة المكرمة.

كانت ميمونة في خطوبتها وزواجها قصة حب طاهرة نسجت ظلالها بوارق الوفاق بين الرسول وقريش وهيأت ليوم الفتح الأعظم بعد زواجها بأقل من عام بدون عنف ولا كراهية ولا دماء.

عن ابن عباس رضي الله عنه، «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة بنت الحارث وهو حرام، فأقام بمكة ثلاثا، فأتاه حويطب بن عبد العزى في نفر من قريش في اليوم الثالث، فقالوا: إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنا، فقال: وماذا عليكم لو تركتموني فعرست بين أظهركم، فصنعنا لكم طعاما فحضرتموه، فقال: لا حاجة لنا في طعامك، فاخرج عنا، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرج بميمونة حتى عرس بها بسرف»[1].

عن يزيد بن الأصم قال: ثقلت ميمونة زوج النبي صلى الله عليه و سلم بمكة وليس عندها أحد من بني أخيها فقالت: أخرجوني من مكة فإني لا أموت بها إن رسول الله صلى الله عليه و سلم أخبرني أني لا أموت بمكة. قال: فحملوها حتى أتوا بها سرف إلى الشجرة التي بنى بها رسول الله صلى الله عليه و سلم تحتها في موضع القبة[2].

(١) مشكل الآثار للطحاوي، ج ١٣، ص ١٠.

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيتمي، ج٩، ص٤٠١.

ميمونة بنت الحارث

روى الخيار من أئمة السيرْ ... من نقلوا لنا الحديث والأثرْ
لما قضى الرسول عمرة القضا ... وتم ما أراد فضلا ورضا

أشرارهم تفرقوا صدوداً ... ومنعوا الإيمان أن يسودا
جاؤوه ظهراً بالوجوه المالحةْ ... وجبَهُوه بالعيون الكالحةْ
مضت هنا أيامك الثلاثةْ ... فاخرج وإلا نطلب الإغاثةْ
وعدتنا ثلاثة أياما ... فكف عنا قومَك الفئاما

فصاح غضباناً أسيدُ بن حضيرْ ... يا ويلكم سيفُ الردى وحشٌ وطيرْ
نبينا المصدق المختارُ ... وجيشه من حوله جرارُ
ليست لك الأرض وليست لأبيك ... محمد زعيمها بلا شريك

لا أنت تمليه ولا أبوكَ ... تعساً لقوم بالردى غروكَ
والله لا يخرج إلا طائعاً ... وحوله سيوفُنا قواطعاً
فارتعدت عليهم الفرائصُ ... كأنما مزقها القوارصُ
وفر فزعان بها حويطبُ ... كأنه عند الفرار أرنبُ

فابتسم النبي في إشراقِ ... ملاطفاً وقال في إشفاقِ
مهلا أسيدُ!! الطف بمن قد زارنا ... لا تؤذِ قومنا قد أتوا رحالَنا
ضيوفُنا وتكرم الضيوفُ ... ولتقرع الطبول والدفوفُ

وقـــال مهـــلاً إن رضـــيتم أمـــراً ... فحـــسبكمْ أو شـــئتمُ فعـــذرا
إنـــي خطبـــتُ مـــنكم حـــسناءَ ... وفرحـــي بهـــا غـــدا مـــساءَ
ميمونـــة الأفـــراح والأمـــاني ... يـــسعدني إذ أنـــتم ضـــيفاني
أصـــهرتُ مـــنكم والـــصهور تكـــرمُ ... وعرضـــكم مكـــرم معظـــمُ
يـــسعدني أن تـــشهدوا الوليمـــةْ ... ميمونـــة ســـعيدة كريمـــةْ!

فـــصعقوا مـــن رجـــل في الحـــربِ ... يمـــلأ دنيـــاهم عـــبيرَ الحـــبِ
قلـــوبهم ســـوداءُ في مـــرارةْ ... وقلبـــه أبـــيضُ في طهـــارةْ
يـــسعون في بعـــادِهِ وحربِـــهِ ... فلـــم يكـــن إلا وصـــال حبِـــهِ
قـــالوا انـــصرف ومـــا لنـــا مـــرادُ ... لا يُعْوِزَنَّـــــــا فـــرح وزادُ
نقـــول لا حاجـــة في طعامـــكْ ... لـــن نأكـــل الطعـــام مـــن إدامـــكْ
فقـــال حيـــا الحـــب والكرامـــةْ ... أرجـــو لكـــم هدايـــةَ الـــسلامةْ
سأبـــسط الأفـــراح في وادي سَـــرِفْ ... جـــوارَ مكـــةٍ وبـــالزهر عُـــرفْ
غـــدا تقـــــام فـــيكم الأفـــراحُ ... أهـــلاً بكـــم إمـــا أتـــوا أو راحـــوا

وأعلنـــت قـــريشُ منعـــاً صـــارما ... مـــن شـــارك الـــصابئ كـــان آثمـــاً
لكنمـــــا رســـــالةُ الـــودادِ ... أقـــوى مـــن العـــداء والأحقـــــادِ
شـــبابهم تـــسللـــوا لـــواذا ... يرجـــون وجـــه المـــصطفى مـــلاذا
ودبكـــوا ورقـــصوا طـــويلا ... لـــصهرِهم خـــير الـــورى دلـــيلا
يـــرقبهمُ بنظـــرات الحـــبَّ ... يـــدلهم في الحـــب خـــير دربَ
حتـــامَ تعرضـــون عـــن ســـبيلهِ ... وكـــل نـــور الكـــون مـــن دليلـــهِ

حيـاك يـا خـير الأنـام صـهراً ... منحتنـا في العـالمين ذكـراً

ونـزع الـنبي جـذرَ الـبغضِ ... وانتـشرت أنـواره في الأرضِ
وتمـت الوليمـة الكـبيرةْ ... ووزعـت خيراتهـا الكـثيرةْ
ميمونـة الخـيرات والمـصالحةْ ... زواجهـا الرحمـة والمـسامحةْ
حياهمـا مـن زوجـة وصـهرِ ... أكـرم بمـا خلـده مـن فخـرِ
مـا كـان في زواجـه مـسياراً ... ولم يكـن يكفكـف الـسعارا
بـل كـان للهـدى وللمـصالحةْ ... أكـرم بعـرس الخـير والمـسامحةْ
وأفـضل الـصلاة والـسلام ... علـى الـنبي سـيد الأنـام

❖ ❖ ❖

القصيدة العشرين
رملة بنت أبي سفيان

أما أبوها فهو رأس المشركين الذين حاربوا رسول الله من البداية، وكان دوماً على رأس الجيوش التي وصلت إلى المدينة بهدف القضاء على الرسول والرسالة، ولكنها اختارت منذ بداية الرسالة موقفاً آخر غير ما اختاره أبوها، وسعدت بالإيمان مع أيام الإسلام الأولى، وتزوجت من عبيد الله بن جحش ابن عمة النبي الكريم، وكان عبيد الله قد تنسك وتحنف قبل الإسلام، وسرعان ما دخل في الإسلام لما بعث رسول الله، وقد واجه الزوجان اضطهاداً غير عادي ألجأهما إلى الهجرة إلى الحبشة.

في الحبشة حصل ما لم يكن يتوقعه أحد، فقد عانت رملة بعد فراق أبيها من فراق زوجها الذي تنصر وراح يسخر من الرسول والرسالة، ولا ندري الأسباب الحقيقية لما جرى ولكن الرجل على كل حال ترك الإسلام وبدأ يكيد للرسول وأهله، وفارق زوجته الوحيدة في أرض الحبشة بدون أي معين.

توكلت الفتاة الصابرة على الله، وقد جمعت أقسى الغربتين، وشمت بها كل من علم خبرها من قريش، وعاشت في الحبشة وحيدة لا تدري ما الله صانع بها.

بعد سنوات طويلة من المرارة جاءها البشير بأن رسول الله يذكرها، لقد أراد النبي الكريم أن يخفف عناءها ووحدتها، ولكنه أراد أيضاً أن يجعلها مدخلاً للإصلاح والحوار بين دولة الإسلام الناشئة وبين أبيها الذي كان يرأس جيوش قريش لحرب الإسلام.

كان هذا الزواج دقيقاً وخطراً، إذ يجب أن يحقق غايته في نزع فتيل العداوة بين أبي سفيان وبين رسول الله ولذلك فقد اختار رسول الله أن

يجلله بالأبهة والفخامة، حتى تتحدث به العرب، ويرضي غرور أبي سفيان، وطلب من النجاشي ملك الحبشة أن يتولى بنفسه أمر الخطوبة والعرس، وهكذا كان.

أرسل النجاشي إلى أم حبيبة جارية أبرهة فقالت لها: إن الملك يقول لك: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلي أن أزوجك منه، فأرسلت أم حبيبة إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكلت، وأعطت جارية أبرهة سوارين وخواتم من فضة سروراً بما بشرتها به، فلما كان العشى أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن هناك من المسلمين فحضروا، فخطب النجاشي..... وقال: قد أصدقتها أربعمائة دينار ذهباً، ثم سكب الدنانير بين يدي القوم.

فتكلم خالد بن سعيد بن العاص فقال: الحمد لله، أحمده وأستعينه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. أما بعد فقد أجبت إلى ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ودفعت الدنانير إلى خالد فقبضها، ثم أرادوا أن يقوموا، فقال النجاشي: اجلسوا، فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج. فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا.

وكان ذلك في المحرم سنة سبع.... وكان أبوها أبو سفيان حال نكاحها بمكة مشركاً محارباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لما بلغه تزوجه صلى الله عليه وسلم بها: مثل ذلك الفحل لا يجدع أنفه.

توفيت رملة سنة أربع وأربعين[1].

(١) سمط النجوم العوالي، ج١، ص١٩٩.

رملة بنت أبي سفيان

روى الإمـام الحـافظ ابـن حَجَـرِ ... أســـفاره طافحـــة بالـــدررِ
عـــن الـــنبي المرشـــد المعلـــمِ ... معلـــم الهـــدى لكـــل مـــسلمِ
عاقـــدهم في غـــزوة الحديبيـــةْ ... مـا كـان يرجـو للهـدى مـن أمنيَـةْ
بـأن يكفـوا الحـرب عنـه عـشرا ... فلـــيس يبغـــون عليـــه شـــرا

نـــاموا وظـــل بعـــدها يقظانـــاً ... يعـــدُّ للأيـــــام مـــا قـــد كانـــا
لكنـــه مـــا شـــاء أن يحاربـــا ... يرجـــو بـــأن يـــرفعَهم مراتبـــا
أراد أن يغـــــشاهم بالحـــــبِّ ... والنـــور والإكـــرام لا بـــالحربِ

أشـــدهم علـــى الـــنبي عـــدواناً ... أميـــةُ الحـــرب أبـــو ســـفيانا
فمـــا الـــسبيل لـــضميرٍ قـــاتمِ ؟ ... يـــضج بالـــضلال والمـــآثم؟
لـــيس المـــراد تقتـــل الكفـــارا ... بـــل كفـــرَهم، واجعلـــهمُ أبـــراراً

وكيـــف تهديـــه إلى الرشـــادِ ... تـــسعده كـــسائر العبـــادِ
وتقطـــع الـــسبيل عـــن عدوانـــهِ ... وتبعـــد التعـــيس عـــن شـــيطانهِ
نجنـــب الـــبلاد شـــر الحـــربِ ... وإنـــه يـــنفخ كـــير الحـــربِ
يريـــده الفـــتح مـــع المحبـــةْ ... يريـــد أن يكرمـــه بالـــصحبةْ
وبعـــد مـــا تأمـــل طويـــلِ ... وجـــدها بأفـــضل الـــسبيلِ
مـــدخل مكـــة إلى الإيمـــانِ ... رمَلـــةٌ بنـــت أبـــي ســـفيانِ

والـــدها في الكفـــر كـــان رأســـا ... وزوجهـــا ارتـــد غـــوى وتعـــسا
فارقهـــا عـــن عمـــد مرتـــدا ... شـــريكها ابـــن جحـــش كفـــراً إدًّاً
فأصـــبحت بـــصبرها وحيـــدةْ ... غريبـــة في البلـــد البعيـــدةْ

فأرســـل الـــنبي للنجاشـــيْ ... الحـــاكم العـــادل في الأحبـــاشِ
يخطـــب منـــه رملـــة المهـــاجرةْ ... بنـت أبـي سـفيان وهـي الـصابرةْ

مـــراده أدركـــه النجاشـــي ... وزال مـــا كـــان مـــن الأغبـــاشِ
إعزازَهـــا قـــد قـــصد الرســـول ... تزفهـــا الجنـــود والخيـــول
وقـــال كرمـــى العـــين نـــادوا رمْلَـــةْ ... يـــسعدني أخطبـــك الغـــداة لـــهْ

فزفهـــا أمـــيرةً مكرمـــةْ ... تجرهـــا خيولُـــه المطهَّمـــةْ
وأبحـــرت في يختـــهِ الـــشهيرِ ... تحوطهـــا الجنـــود في تقـــديرِ
ونـــصبت خيامُهـــا ألوانـــا ... كـــأعظم الأعـــراس مهرجانـــاً
وطـــارت الأخبـــار في الحجـــاز ... عروســـةُ الملـــوك في إعـــزازِ

وقيـــل واهـــا يـــا أبـــا ســـفيانا ... أصـــهرت للـــصابئ؟؟ كيـــف كانـــا
تـــزوج الفتـــاة في غيابـــك ... فكيـــف إمـــا قـــد غـــدا ببابـــك؟؟

فـــراح يزهـــو شمخـــاً مغـــرورا ... وقـــال وهـــو يمتلـــي ســـرورا
يـــا حـــسنها مـــن رغـــدٍ عـــروسُ ... وتـــشتهي مكانهـــا النفـــوسُ
في جيـــدها عقـــود در وذهـــبْ ... تحـــدثت بعـــرس رملـــة العـــربْ

وقـــال يمـــدح الرســـول فخـــرا ... يزهـــو بـــصهره الجديـــد جهـــراً
الفحـــلُ لا يجـــدع منـــه أنفـــهُ ... صهري.. ومـن يؤذيـه يـأتي حتفـهُ

في لحظـــــة تهـــــدم العـــــداءُ ... وهُـــــدم الفجـــــور والبغـــــضاءُ
وأصـــــبحت طريقـــــه ممهـــــدةْ ... إن شـــاء يـــأتي مكـــة الممجـــدةْ

ولم يكـــــن إلا شـــــهورا عـــــددا ... حتـــى أتـــاه بـــالجيوش مـــددا
وســـقط المـــسكين في الإســـارِ ... وأعلـــن الـــنبي في انتـــصارِ
مـــن حـــل في دار أبـــي ســـفيانا ... فـــإنني منحتـــه الأمانـــا
فـصار سـاعي نـصره النـشيطا ... يقـــصُّ في أعتابـــه الـــشريطا
مرحِّبـــاً بنـــوره وشـــرعتهْ ... وداعيـــــاً لهديـــه وســـنتهْ
صـــلى عليـــه الله مـــن معلـــمِ ... وموئـــل الهـــدى لكـــل مـــسلمِ

❖ ❖ ❖

القصيدة الحادية والعشرون
نعم الإدام الخل

حكاية جرت على الألسنة وسمعناها من مشايخنا ولكننا لم نجد لها سنداً، فقد اشتهر شطر الحكاية: نعم الإدام الخل، رواه كثيرون، ولكن الشطر الآخر لم يروه فيما نعلم أحد، وقال السخاوي لا أصل له، وهي حكاية نسردها على ذمة مشايخنا الذين حدثونا بها، وهي على كل حال لا تتضمن حكماً شرعياً، وإنما هي موعظة رقيقة في ثقافة الكرم والبخل.

الكريم كريم ولو كان فقيراً، والبخيل بخيل ولو كان غنياً، وبحسب البخيل من المهانة سوء ظنه بربه، لو أنه آمن بالعوض من الله، لبادر إلى الصدقة والمعروف، ومن عجائب شأن البخيل أن القرآن الكريم يذكر الفحشاء دوماً في الإشارة إلى جريمة الزنا، ولكنه ذكرها مرة للإشارة إلى جرم البخل وذلك لبيان بشاعته ونكارته، قال تعالى: الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً.

وفي الأثر: أبغض ثلاثاً وبغضي لثلاث أشد، أبغض الغني المتكبر وبُغضي للفقير المتكبر أشد، وأبغض الفقير البخيل وبغضي للغني البخيل أشدّ، وأبغض الشاب العاصي وبغضي للشيخ العاصي أشد.

أما رسول الله فقد كان يحب الجود والكرم وكان إذا أنفق كأنه الريح المرسلة، وكان يقول أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش الإقلال.

كان زين العابدين بن الحسين إماماً في الكرم والجود وكان ينفق في كل موسم في الفقراء وذوي الحاجة فقال له كاتبه مرة: يا إمام إن السنة قحط وجدب فلو شطرنا ما ننفق، قال له: ويحك، إن الله عودني وعودته، عودته الإنفاق وعودني العوض، وإني أخشى إن غيرت ما عودته أن يغير ما عودني!

وكان إذا أتاه الفقير أعطاه الصدقة وقبل يده وقال: أهلاً بمن يحمل زادي إلى الآخرة، وكان يقول من أمكنني أن أجعل معروفي عنده كانت يده علي أمن من يدي عليه.

نعم الإدام الخل

يـروى بـأن المـصطفى الأمينـا ... وكـان يرعـى العبـد والمـسكينا
أتـاه مـسكينٌ مـن القـراءِ ... دعـاه في شـوق إلى العـشاءِ
فبـادر الـنبي بالإجابـةْ ... مـراده يعلـم الـصحابةْ
بـأن خـير الـدعوات بركـةْ ... مـا كـان دون كُلَـفٍ أو لَبَكَـةْ
لـو أنـه قـد واعـد الفقـيرا ... قـبلاً.. لبـاع البيـت والحـصيرا
كيمـا يقـوم بأصـول الواجـب ... أكـرم بـهِ أكـرم بـهِ مـن صـاحبِ

أجابـه وقـال هيـا يـا فتـى ... فابسط لنا ما كان من خير أتى
وأسـقط الفتـى مـن الإحـراجِ ... مـا فيـه مـن لحـم ولا دجـاجِ

وكـان في مطبخـه خبـز وخـلْ ... وعنـده وعـاءُ مـاء وبـصلْ
فأشـرق الـنبي في عطائـهِ ... يـدعو لـه وقـال في ثنائِـهِ
مبتـسماً نعـم الإدام الخـلُّ ... وأفـضل الأرزاق مـا يحـلُّ
وأفـضل الطعـام خـيراً مـا حـضرْ ... كفاك شـرا أن سَـخِطْتَ مـا حـضرْ
وذهبـت في الفقـراءِ مـثلا ... وقـد كفـتهمْ أمـلاً وعمـلاً
نعـم الإدام الخـل قـال المـصطفى ... أكـرم بـه رزقـاً لأوقـات الـصفا

فجـاءه مـن الـصحابِ تـاجرُ ... لـه نخيـلٌ ولـه متـاجرُ
وقـال إنـي راغـب بالبركـةْ ... لا تحـرم الراغـب تلـك البركـةْ
أريـد أن أراك في ديـاري ... فتغمـرِ الأنـوار كـل الـدارِ
ننـال مـن حـضورك التكريمـا ... وفـضلكم نـسعى لـه تعظيمـاً

واحشد من الأصحاب من تريدُ ... وما يكن من عدد يزيدُ
واعده في ساعة محدودةْ ... وداره بعيدةٌ شديدةْ
واعده على الغداء الجمعةْ ... والناس حول المصطفى مجتمعهْ
وبسط الغني منه المائدةْ ... خلاف كل المكرمات السائدةْ
ولم يكن بها سوى خبز وخلْ ... ودونما حتى وماذا ولعلْ
أشار إني راغب بالسنةْ ... في فضل هذا الخل نصَ السنةْ
حدثني بها أبو هريرةْ ... لم يرو لي من الحديث غيرَهْ
وراح يرويه على اتئادِ ... نعم الإدامُ الخلُّ بالإسنادِ

فانكشف البخل جلياً ظاهراً ... وانكشف الشح عياناً حاضراً
ونظر الأصحاب للنبي ... ما رأيكم بالخل من غني
فقال في حكمته المعهودة ... يرشدهم سنته الرشيدة
للفقرا نعمَ الإدام الخلُّ ... قل للغني بئس الإدام الخلُّ
إذا أفاض الله بالخير لديكْ ... ويحك أظهر نعمة الله عليكْ
أراده يصلح من تفسيرهِ ... يا ويح من يحمقُ في ضميرهِ

بنعمة الله عليك حدِّثِ ... الجود خير خلَف لمورثِ
فكل من الخيرات رغدا واشكرِ ... وأطعم الضيفان فيها وافخرِ
وإن دعوت الناس فانحر جملا ... واسفح من الزاد عليه قُللاً
وقل له الحمدُ غذاني نعما ... جادت بها خيراتُ أرض وسما
وأختم الكلام بالسلامِ ... على النبي مرشد الأنامِ

❖ ❖ ❖

القصيدة الثانية والعشرون
أبو سفيان بن حارث

أبو سفيان بن حارث، واسمه المغيرة واشتهر بكنيته، ابن عم النبي الكريم، أبوه الحارث بن عبد المطلب أكبر أعمام الرسول صلى الله عليه وسلم، عرف في الجاهلية بأنه أقرب الناس إلى محمد، قرينه في السفر والحضر، وكان من أشبه الناس به سمتاً، وكان أخاه في الرضاعة إذ رضع معه من حليمة السعدية، وكان شاعراً مجيداً،.

صحب أبو سفيان رسول الله سائر أيامه بمكة قبل أن يوحى إليه، وحين نزل الوحي في غار حراء كان رسول الله يعتقد أن أبا سفيان سيكون أول السابقين إلى الهدى، ولكن الرجل في الواقع نظر إلى المسألة من باب آخر، في سياق تنافس الأصحاب وتسابقهم، وأغضبه أن الوحي سبق إلى ابن عمه ولم ينزل عليه.

ومنذ بدء النبوة خاض المسكين حرباً بلا هوادة ضد النبي الكريم وضد رسالته، وقد كان أحرى الناس بان يكون أول أعوانه على الخير، وخاض بدراً وأحداً والخندق مع المشركين يحارب ابن عمه، ولكن سيفه لم يكن أقسى ما لقيه منه رسول الله لقد كان لسانه البليغ وقدرته الشعرية التي سخرها لمحاربة النبي وتشويه صورته، وكان لكلامه أثر كبير عند الناس لما يعرفونه من قرابته وطول صحبته له قبل الإسلام.

بعد عشرين عاماً من حربه على النبي بلا هوادة أنصت الرجل إلى لحظة عقل، وتساءل: ما الذي جنيته من أمر هذا الصدود؟؟ وما حصاد هذا

الغرور الفارغ؟ لقد كنا في ضلال مبين، ولكن كيف السبيل إلى استدراك ما فات؟

القصيدة تروي لك ظلالاً دقيقة من المشهد.

قال ابن سعد في الطبقات الكبرى:

كان أبو سفيان شاعراً فكان يهجو أصحاب رسول الله، وكان مباعداً للإسلام شديداً على من دخل فيه، وكان أخا رسول الله من الرضاعة، أرضعته حليمة أياما، وكان يألف رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكان له تراباً، فلما بعث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عاداه وهجاه وهجا أصحابه فمكث عشرين سنة عدوا لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولا تخلف عن موضع تسير فيه قريش لقتال رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما ضرب الإسلام بجرانه وذكر تحرك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى مكة عام الفتح ألقى الله في قلب أبي سفيان بن الحارث الإسلام، قال أبو سفيان: فجئت إلى زوجتي وولدي فقلت تهيؤوا للخروج فقد أظل قدوم محمد، فقالوا: فدانا لك أن تبصر أن العرب والعجم قد تبعت محمدا وأنت موضع في عداوته وكنت أولى الناس بنصرته. قال فقلت لغلامي مذكور: عجل علي بأبعرة وفرسي، ثم خرجنا من مكة نريد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فسرنا حتى نزلنا الأبواء وقد نزلت مقدمة رسول الله الأبواء تريد مكة، فخفت أن أقبل وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد نذر دمي، فتنكرت وخرجت وأخذت بيد ابني جعفر فمشينا على أقدامنا نحواً من ميل في الغداة التي صبح رسول الله، فيها الأبواء فتصدينا له تلقاء وجهه، فأعرض عني إلى الناحية الأخرى فتحولت إلى ناحية وجهه الأخرى فأعرض عني مرارا فأخذني ما قرب وما

بعد وقلت أنا مقتول قبل أن أصل إليه وأتذكر بره ورحمه وقرابتي به فتمسك ذلك مني، وكنت أظن أن رسول الله يفرح بإسلامي فأسلمت وخرجت معه على هذا من الحال حتى شهدت فتح مكة وحنين، فلما لقينا العدو بحنين اقتحمت عن فرسي وبيدي السيف صلتا وأنا أريد الموت دونه وهو ينظر إلى فقال العباس: يا رسول الله هذا أخوك وابن عمك أبو سفيان ابن الحارث فارض عنه، قال: قد فعلت فغفر الله له كل عداوة عادانيها ثم التفت إلي فقال: أخي، لعمري قبلت رجله في الركاب

شهد مع رسول الله، فتح مكة ويوم حنين والطائف هو وابنه جعفر وثبتا معه حين انكشف الناس يوم حنين، وعلى أبي سفيان يومئذ مقطعة برود وعمامة برود وقد شد وسطه ببرد وهو آخذ بلجام بغلة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلما انجلت الغبرة قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من هذا؟ قال: أخوك أبو سفيان، قال: أخي أيم الله إذا. وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: أبو سفيان أخي وخير أهلي وقد أعقبني الله من حمزة أبا سفيان بن الحارث، فكان يقال لأبي سفيان بعد ذلك أسد الله وأسد رسول الله..[1].

(١) طبقات ابن سعد، ج٤، ص ٥٢.

أبو سفيان بن حارث

حـــدثنا إمـــام أهـــل الـــسيرِ ... الحـــافظ المـــؤرخ ابـــن حجـــرِ
في الـــسيرة الزكيـــة المهديـــة ... علـــى حواشـــي التحفـــة النديـــة
عـــن ســـيرة الـــنبي قبـــل الـــوحيِ ... وعـــن رفاقـــه بـــذاك الـــسعيِ
وكـــان مـــن أدنـــاهم مكانـــاً ... لـــه ابـــن عمـــه أبـــو ســـفيانا
فتـــى ولا كـــسائر الفتيـــانِ ... معلـــم الحجـــاز في البيـــانِ
خطابـــه وشـــعره رهيـــبُ ... وعلمـــــه وعقلـــه عجيـــبُ
وكـــان أقـــرب الـــورى إليـــهِ ... أشـــدهم شـــبهاً بـــه لديـــهِ
رفيقـــه في الـــسفر البعيـــدِ ... أنيـــسه في الحـــضر الـــسعيدِ
مـــا غـــاب عنـــه ســـفراً أو حـــضراً ... وكـــل مكرماتـــه قـــد حـــضرا

حتـــى إذا مـــا نـــزل القـــرآنُ ... علـــى الـــنبي وأتـــى البيـــانُ
بيـــان حـــق والحيـــاة ســـاطعةْ ... وزلزلـــت بالبينـــات الواقعـــةْ
أدار مـــن ظهـــر المجـــن غـــدرَهُ ... وأظهـــر الكفـــر وأبـــدى شـــرَّهُ
وراح في كـــل ســـبيل يقعـــدُ ... يـــصد عـــن درب الهـــدى ويفـــسدُ
خطـــبهم في يـــوم بـــدر غاضـــبا ... يـــشدهم في حـــربهم كتائبـــاً
محمـــد ابـــن عـــمٍّ لا أجهلُـــهُ ... يأتيـــه جنٌّ.. يفـــتري الـــوحي لـــهُ
فـــلا تغـــرنكمُ فـــصاحتـــهْ ... ولا هـــــدوؤه ولا أمانتـــــهْ
لا يلفتـــنكم عـــن الـــدين الـــذيْ ... أورثـــه عبـــد منـــافٍ وقـــصيْ
ومـــا أريكـــم فيـــه إلا مـــا أرى ... فقـــاتلوه باطنـــاً وظـــاهراً
وكـــرر الموقـــفَ يـــوم أحـــداً ... وغـــزوةَ الخنـــدق يرديهـــا الـــردى

وبعـــدما أرهقـــه العنـــــاءُ ... وقـــدر الـــرحمن مـــا يـــشاءُ
وفتحـــت مكـــة للمختـــــارِ ... وطهـــر البيـــت مـــن الفجـــارِ
قـد صـدق الـرحمن فـيهم وعـدَهُ ... أعلـــى حمـــاه وأعـــز جنـــدَهُ

أتـــى ابـــن عمـــه أبـــو ســـفيانا ... للمـــصطفى يلـــتمس الغفرانـــا
الـــشاعر القـــديم والرفيـــقُ ... والعـــم وابـــن العـــم والطريـــقُ
وحينمـــا اســـتأذن أن يـــراهُ ... تـــردَّدَ الـــنبي في لقيـــــاهُ
إن الأســـى لا تنتـــسى ذكـــراهُ ... وكيـف ينـسى منهَـــكٌ عنـاهُ
عـشرون عامـاً والحـروب تملـى ... وأنـت فيهـــــا القـدَحُ المعلَّـى
ومـا الـذي أرجـو مـن ابـن عمـي ... ومنـــــــه كـان ألمـي وغمِّـي

فـــراح يـــشكو أمـــرَه إلى علـــيْ ... مفتـاح بـابِ علـم حـضرة الـنبيْ
طرقـــت بابـــه وعـــدتُ خائبـــاً ... ولا أزال طالبـــاً وراغبـــــاً
والله إلا يـــأذنَنْ لقـــــائي ... ويـرفعنَّ اليـوم مـن عنـــائي
لآخـــذنْ بيـــــدِ إبـــني هـــذا ... ألـــوذُ في صحرائهـــــا لـــواذا
أرحـــلُ لا تـــسألني رجوعـــاً ... حتـــى نمـــوت عطـــشاً وجوعـــاً
ورق مـــن رجائـــــه علـــيٌّ ... وقـال مهـلاً إنـــــــه الـنبيُّ
آلمـــه صـــدودك الطويـــــلُ ... فاصـبر عـساه يُكـشف الـسبيلُ

مـــن يتأمـــلْ حلمـــه لا يجـــدُ ... أحـــسنَ منـــه في الجـــواب أحـــدُ
فادخـل عليـه دونمـا اسـتئذانِ ... وقـــل أمـــام المـــلأ العيـــــانِ
مـــا قالـــه ليوســـف الـــصديقِ ... إخوانُـــه بعـــد الأســـى والـــضيقِ

أتـــى أبـــو ســـفيان خيمـــة الـــنبيْ ... ملثمـــاً بمثـــل مـــا قـــال علـــيْ
وعـــاد نحـــو الخيمـــة الـــشريفةْ ... مـــــرتلاً تـــــضرعـــاً وخيفـــةْ
وكـــشف اللثـــام للعيـــــانِ ... وراح يتلـــو آيـــــة القـــرآنِ
كمـــا تلاهـــا قبلـــه الأســـباطُ ... ليوســـف إذ فـــرش البـــساطُ
آثـــــرك الله علينـــــا دِيْنـــــاً ... والله كنـــا قبـــل خاطئينـــــا
فابتـــسم الـــنبي ثـــم قـــــالا ... ســـبحان مـــن يحـــول الأحـــوالا
وقـــال مـــا علـــيكم تثريـــبُ ... اليـــوم ســـوف تغفـــر الـــذنوبُ
وقـــال مـــن أيـــن علمـــت هـــذا؟ ... متـــى عرفـــتَ حرجـــي مـــن هـــذا؟
أظـــن أنـــــه الفتـــى العلـــيُّ ... نعـــم ابـــن عـــم المـــصطفى علـــيُّ
فأيهـــا الـــصحاب والأحبـــةْ ... لا تغلقـــوا بابـــاً مـــن المحبـــةْ
والحلـــم تـــاج ســـائر الأخـــلاقِ ... بفـــضله نـــسمو إلى الطبـــاقِ

❖ ❖ ❖

القصيدة الثالثة والعشرون
أبو سفيان وفتح مكة

كان أبو سفيان رأس بني أمية، وكانت بنو أمية أصحاب الحرب في مكة، ولم يجدوا في دعوة النبي الكريم إلا تنافساً في مراكز القوى، وقد اختار أبو سفيان أن يحارب الرسول الكريم منذ بداية عصر الرسالة.

بعد الهجرة انتقلت عداوة أبي سفيان إلى طور جديد فقد بدأ يجيش الجيوش ضد النبي الكريم وخاض ضده حرب بدر وأحد والخندق وفيها جميعاً كان يجتهد في قتل رسول الله، والله يعصم نبيه من الناس.

بعد سلسلة حروب بدأ ميزان القوى يتغير لصالح النبي الكريم، فيتم عقد صلح الحديبية الذي يوقف الحرب، ولكن قريشاً تنقضه بعد عام واحد ويصبح السبيل مفتوحاً أمام النبي الكريم لفتح مكة.

كان هدفه الأول أن يدخل مكة بدون دماء وعنف، ولكن كيف؟ إن أبا سفيان يعتبر المسألة مسألة مصير، وهيهات أن يستجيب لصوت العقل، وهو على استعداد لحشد القبائل لمحاربة النبي من جديد.

كانت خطة النبي الكريم أن يبغت قريشاً في دارها وهو ما فعله، ولكن هندسته العسكرية ارتكزت على تفريغ أبي سفيان من مكانه القيادي، فبدأ بالإصهار إليه وهذا أفرغ قدراً غير قليل من العداوة، ثم وضع خطة محكمة لاستدراجه إلى خطم الوادي بعسفان عبر صديقين له كانا على اتصال بالعباس عم رسول الله وهما بديل بن ورقاء الخزاعي

وحكيم بن حزام، حيث كان رسول الله قد وصل ومعه عشرة آلاف مقاتل لا يردهم شيء، وحين وصل إلى الوادي أحاط به رجال الله من كل وجه، وهناك بدأت خطة محكمة من الرغب والرهب حولت أبا سفيان من أسد شرس إلى حمل وديع كان غاية ما حظي به يوم الفتح أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، وكان عليه مقابل ذلك أن يكف قريشاً عن الحرب وأن يؤمن دخول الجيش بسلام.

أعتقد أن تفاصيل الخطة كانت من أوضح الأدلة على عبقرية النبي الكريم في الجانب العسكري، وهي التي أمنت دخوله مكة بأمن وسلام، حيث نزل قول الله تعالى: إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً

أبو سفيان وفتح مكة

روى الثقات من أئمة السيرْ ... في خبر الفتح العظيم المنتظرْ
المصطفى مظفر منصورُ ... تحفُّه من مكةَ الطيورُ
حط الرحال عند عسفانا ... مراده يلقى أبا سفيانا
إذ كان في القوم أمير الحربِ ... والمصطفى يكره شكل الحربِ
لا بد أن يكفَّ ذلك الرجلْ ... لا بد أن يأتي إلينا بالعجلْ
وأحكم العباس من تدبيرهِ ... بُدَيلُ[1] جاءه على بعيره
لسانه فيما يُظنُّ مشركُ ... وقلبه إلى النبي يسلك
شريكه حكيم من حزام ... وأحكم التخطيط في الظلام
واستدرجاه دونما إعلامِ ... ونفذ الأمر على التمامِ

ما كان يدري أمرهم بالمرةْ ... فاجأه العباس عند الصخرةْ
ويلك فاعلم يا أبا سفيانا ... محمد بجيشه أتانا
ونزلوا عند خطام الوادي ... إن سار حل الموت بالبلادِ
فاهرع إلى الرسول في أماني ... ننجي قريشاً من لظى النيرانِ
فقال هيا والزمان يقصرُ ... لعله يرحمنا ويغفرُ

(١) بديل بن ورقاء الخزاعي من وجوه خزاعة، زعيم معتدل، اشتهر بالعقل والحكمة، واختارته قريش مفاوضا لرسول الله يوم الحديبية ويبدو أنه أسلم ولكنه كتم إسلامه وبقي مع قريش، ومن سياق القصة يبدو أنه تعاون مع حكيم بن حزام عم السيدة خديجة، وكان مثله يقيم في مكة مع قريش ولكنه يكتم إيمانه، واتفقا مع العباس عم النبي أن يستدرجا أبا سفيان قبل يوم الفتح إلى حيث نزل جيش رسول الله في عسفان، وهناك كانت تفاصيل الرواية.

جـاؤوه محمـولاً أمـام النـاسِ ... بحيلـةٍ مـن عمـه العبـاسِ
واشـتد يعـدو خلفـه جريـاً عمـرْ ... وسـيفه إلى القـصاص المنتظـرْ

ودخـل العبـاس خيمـة الـنبيْ ... وخلفـه الفـاروق في بـأس قـويْ
عـدوُّنا مـن دون عقـد قـد وقـعْ ... فـأذن بحـد الله فيـه أن يقـعْ
خلفـتُ مـن أصـحابنا ألوفـا ... وكلـهم يرجـو لـه الحتوفـا
وأمـسك العبـاسُ منـه الرأسـا ... يقـول قـد أجـرتُ هـذي النفـسا
وقـال قـد منحتـه جِـواري ... حاشـاكم أن تخفـروا ذمـاري
وثـار بـين الـرجلين لغـطُ ... وعنـق التعـيس خوفـاً تملـطُ
والمـصطفى يـستمع الجـدالا ... ولم يـشأ أن يفـصلَ المقـالا
ونـزل القـضاء بالمـسكينِ ... وصـار مقهـوراً بـلا معـينِ
وهمـس الـنبي للعبـاسِ ... خـذه يـرى جيوشـنا في النـاسِ
وقـف بـه بباب خطـم الـوادي ... يـشهد جـيش الله في الميعـادِ
عرمرمـا كالـسيل هـدراً يهـدرُ ... وكلـهم مهلـل مكبـرُ
يـشتاق للنـزال في الميـدانِ ... وللقـصاص مـن أبـي سـفيانِ

فهمـس المـذعور في ارتبـاكِ ... يـود لـو يلقـى مـن الـشباكِ
مـن ذا يطيـق جيـشكم نـزالا ... لقـد قـصدتُ قـدَراً مُحـالا
قد صار ملـك ابـن أخيـك مـذهلاً ... خـذني إليـه أرتجـي توسـلا
بـأن يكـفَّ عـن قـريشَ الجيـشا ... وإنـني لـضامنٌ قريـشـاً

وهـا هنـا يلزمنـا التوقـفُ ... وسـوف نمـضي قولَنـا نـستأنفُ
في خيمـة الرسـول عنـد الـوادي ... هـادي الـورى ومنقـذ الـبلادِ
صـلى عليـه الله في عليائـهِ ... ومـلأ الوجـود مـن ضـيائهِ

❖ ❖ ❖

القصيدة الرابعة والعشرون
تتمة أبو سفيان بن حرب

أهـــلاً بكـــم نـــستأنف الكلامـــا ... فيمـــا توقفنـــا بـــه لزامـــــــاً
في يـــوم فـــتح مكـــة المكرمـــةْ ... أعظـم بيـوم الفـتح خـير مِكْرُمـةْ

حـــدثتكم أمـــر أبـــي ســـفيانا ... لمـــا غـــدا محاصـــراً عيانـــاً
فـــؤادُه يكـــاد أن ينـــشقـــا ... رعبـــاً وخوفـــا وجـــزاءً حقـــاً
منحـــه العبـــاس مـــن جـــوارهِ ... والكـــل يرجـــو يـــصطلي بنـــارهِ

وبـــــدأ الـــــنبي في حـــــوارهِ ... في خيمـــة المختـــار في انتظـــارهِ
وحولـــه مـــن الـــصحاب ألـــفُ ... مـــرادهم لـــه الـــردى والحتـــفُ
يقـــودهم مـــن الرجـــال عمـــرُ ... وطلحـــة والمرتـــضى وجعفـــرُ
ويحـــك تعـــساً يـــا أبـــا ســـفيانا ... ألم يـــأن أن تعـــرف الإيمانـــا
ألم يـــأن أن تـــتركَ الظنونـــا ... أن لا إلـــه غـــيرُه يقينـــــا

فقـــال مـــا أفعـــل بالأصـــنامِ ... بـــاللات والعـــزى وبـــالأزلامِ
فمـــد رأسـه إليـــــه عمـــرُ ... وقـال بـالفُحشِ القبـيح تطمـرُ
فلـتغن عنـك اليـوم مـن قـصاصِ ... تذوقـــه حتمـــاً بـــلا منـــاصِ
فقـــال تعـــساً فـــارحموني إنـــي ... أحتـــاج غفرانـــاً بـــدون مـــنٍّ
وقـــال للـــنبي مـــا أحلمـــكَ ... حقـاً علـى المـدى ومـا أوصـلكَ
لقـــد علمـــت إن تكـــن أصـــنامي ... حقـــاً لنجـــتني إلى الأمـــانِ

ونطـــق اللـــسان بالـــشهادةْ ... موحـــداً مـــن دونمـــا زيـــادةْ
فابتـــسم الـــنبي ثـــم قـــالا ... ووجهـــه قـــد انتـــشى جـــلالا
طـــال جـــدالي يـــا أبـــا ســـفيانا ... أبعْـــدَ مـــا كـــان الـــذي قـــد كانـــا؟
مـــا آن أن تعـــرف حقـــاً أنـــي ... رســـولُه الـــصادقُ دون مـــنٍّ

فقـــال هـــذي لم تـــزل شـــكوكي ... تحـــوم فـــامهلني إلى الـــدلوكِ
فمـــد منـــه الـــرأس فـــوراً عمـــرُ ... أجابـــه في غـــضب يزمجـــرُ
لـــو قـــد قطعنـــا الـــرأس زال الـــشكُّ ... ولم يعـــد شـــاكٍ ولا مـــا يـــشكو
ففزع المسكين من صوت الغضبْ ... تبـت يـدا الـلاتِ وأختيهـا وتـبْ
ونطـــق اللـــسان بالإيمـــانِ ... والله أدرى منـــك بالجنـــانِ

وقبـــل الـــنبي منـــه مـــا نطـــقْ ... وقـــال هيـــا فاغـــدُ في هـــذا الغـــسقْ
وكـــف عنـــا النـــاس عنـــد الفـــتحِ ... أريـــد أن أدخـــل عنـــد الـــصبحِ
وكـــن لهـــم حمامـــة الـــسلامِ ... أهـــلاً بمـــن يـــدخل في الإســـلامِ
ومـــن أتـــى دارك كـــان آمنـــا ... ومـــن أتـــى المـــسجد كـــان آمنـــاً
وراح مـــن مـــسائه ملطوشـــا ... يـــصرخُ ويحكـــم فكفـــوا طيـــشا
أتـــاكم محمـــد منـــصورا ... ألقـــوا الـــسلاح واســـتقروا الـــدورا
ومـــن أتـــى داري ينـــال أمنـــا ... محمـــد أطلقـــني ومنـــَّا
فلعنـــوه خائبـــاً حـــسيراً ... إذ طالمـــا أضـــلهم كـــثيراً
وجـــاءهم كالـــصوصِ في ذعـــورِ ... أشـــبه بـــالأنثى مـــن الـــذكورِ

وصـــبَّح الـــنبي في الفـــتح المـــبين ... مهلـــلاً يـــشكرُ رب العـــالمين

وحـــين صـــفوا عنـــده وقوفـــاً ... يخـــشون مـــن غـــضبه الحتوفـــا
عفـــا وقـــال قـــد بـــدا الرجـــاءُ ... هيـــا اذهبـــوا فـــأنتم الطلقـــاءُ
وســـار منـــصوراً إلى الحجـــونِ ... يـــسكن في القلـــوب والعيـــونِ
وراح عنـــد خيمـــة انتـــصارِهِ ... يعفـــو عـــن المـــسيء في اعتـــذارِهِ

دخلـــها بالنـــصر والغفـــرانِ ... وطـــاف فيهـــا ثابـــت الجنـــانِ
مؤذنـــاً حـــي علـــى الـــسلامِ ... والحـــب والمعـــروف والوئـــامِ

❖ ❖ ❖

القصيدة الخامسة والعشرون
فاطمة وعلي

فاطمة حب رسول الله، وبضعته الباقية من بعده، وقد أجمع سائر فقهاء الأمة أنها أفضل الخلق بعد رسول الله لأنها بضعة منه.

أصهر إليها علي عليه السلام، وهو باب مدينة العلم، وانطلقت حياة العروسين في كنف بيت النبوة.

قد يبدو هذا الزواج للمراقب بهيجاً طرباً، ويتصور بعض المراقبين أن العروسين عاشا أرغد عيش وفي فم كل منهما ملعقة ذهب، فبيت المال كان عند أبيها، وكانت الأيام في سعود والفتوح في صعود، ومن أولى منهما برغد العيش بعد طول عناء؟

ولكن النبي الكريم كان له رأي آخر، وحين جاءته فاطمة تشكو إليه شظف العيش وتسأله أن يعينها بجارية وغلام، فوجئت بأن رسول الله لن يقبل ذلك، وبعد جواب لطيف لامس فيه مكان فؤاديهما كشف النبي الكريم عن موقفه المسؤول في حماية المال العام، وقال بصراحة للعروسين الشابين: لا والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم من الجوع!!

لقد كان يرسم موقف القائد العادل المؤتمن على حقوق الناس وأموالهم، وأعلن بكل شجاعة: دعوا ما لله لله، وما لقيصر لقيصر.

وقال:

تروي فاطمة جواب النبي الكريم على طلبها الذي كان يبدو عادياً وطبيعياً ولكنه كان في معايير النبوة تجاوزاً غير مقبول.

عن علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما زوجه فاطمة بعث معها بخميلة ووسادة أدم حشوها ليف، ورحاءين وسقاءين، فقال علي لفاطمة يوماً: لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقد جاء الله بسبي، فاذهبي فاستخدمي، (أي فاطلبي من رسول الله خادماً يعيننا) فقالت: وأنا والله قد طحنت حتى مجلت يداي، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما جاء بك أي بنية! فقالت جئت لأسلم عليك، واستحيت أن تسأله ورجعت، فأتياه جميعاً فذكر له علي حالهما، قال: لا والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيع وأنفق عليهم أثمانهم.

فرجعا إلى الدار، فأتاهما رسول الله وقد دخلا قطيفتين إذا غطيا رؤوسهما بدت أقدامهما وإذا غطيا أقدامهما انكشفت رؤوسهما، فثارا فقال مكانكما، ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟؟ فقالا: بلى... فقال: كلمات علمنيهن جبريل، تسبحان في دبر كل صلاة عشراً، وتحمدان عشراً، وتكبران عشراً، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثاً وثلاثين، وأحمدا ثلاثاً وثلاثين، وكبرا أربعاً وثلاثين[1].

عن حبيب بن أبي ثابت قال كان بين علي وفاطمة كلام فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل حتى أصلح بينهما ثم خرج قال فقيل له دخلت وأنت على حال وخرجت ونحن نرى البشر في وجهك فقال وما يمنعني وقد أصلحت بين أحب اثنين إلي[2].

(١) الاصابة لابن حجر العسقلاني، ج١٢، ص ٣٩٣.
(٢) الاصابة، ج١٢، ص ٢٩٣.

علي وفاطمة

روى الإمـــام أحمـــد بـــن حنبـــل ... وعـــن عطـــاء عـــن أبيـــه عـــن علـــي
أكـــرمني الرســـول بـــالزهراء ... وجـــبهتي صـــارت إلى الـــسماء
فاطمـــة بنـــت الرســـول زوجـــتي ... ويعلـــم النـــاس قليـــل حـــيلتي
ولم يكـــن لـــدي مـــال وافـــر ... رزق قليـــل ولـــسان شـــاكر

صـــابرت عمـــري جهـــداً وكـــدا ... وكنـــت للأقـــدار مـــستعـــداً
وشـــاركتني في العنـــاء فاطمـــة ... أرجـو بهـا مـولاي حسن الخاتمة
قـــد وهنـــت كـــداً مـــن الـــسقاية ... ومـــا لغـــير الله مـــن شكايـــة
وجـسمها مـن كبـد قـد اشـتكى ... من طـول مـا كانـت تـدق الـدرمكا
وحـين جـاء النـصر يـوم خيـبرا ... وأنعـــم الله بمـــال وقـــرى
ســـألتها تطلـــب مـــن أبيهـــا ... جاريـــة أو ولـــداً يكفيهـــا
غـــدت إليـــه يومهـــا مـــرارا ... وخجلـــت أن تكـــشف الأســـتارا

فلـم نـرع إلا الرسـول المـصطفى ... بالبـــاب وافـــى كرمـــاً وشـــرفا
ســـألها في لهفـــة الآبـــاء ... زهـــراء مـــا تـــشكين مـــن عنـــاء؟
أتيـــتِني اليـــوم لـــدى العـــشيـــةْ ... فمـــا الـــذي تبغينَـــه بُنيـــةْ؟

قالـت وعيناهـا حزانـى مـشفقة ... نـشكو إليـك اليـوم ضـيق النفقـة
ومالنـــا شـــيء يـــذوق الـــذائق ... ســـبحان مـــن تقـــصده الخلائـــق
طحنـــت حتـــى مجلـــت يـــدايَ ... أرجـو بـذاك العفـو مـن مـولايَ

صدري وهى مـن طـول مـا سـنَوتُ ... وغـــير بـــاب الله مـــا رجَـــوتُ

وأثـــرت في نحـــري القـــراب ... وأشـفقت مـن حـالي الأصـحاب
أبغـــي غلامـــاً وفتـــاة جاريـــة ... وأســـأل الله الـــشفا والعافيـــة
فقـــال بـــل أعطيكمـــا هديـــة ... خـــيراً مـــن الغـــلام والـــصبية
تـــــسبحان الله في الـــــصباح ... وتـــشكران فـــالق الإصـــباح
وتحمـــدان بعـــد كـــل فـــرض ... أرجـو بهـا النجـاة يـوم العـرض

قالـــت وفي أدمعهـــا حكايـــة ... كـــأنني لم أوضـــح الـــشكاية
صـــليت حتـــى ورمـــت بنـــاني ... ذكـرت حتـى قـد وهـى لـساني
فـــأعطني الغـــلام ثـــم جاريـــةْ ... ألـــستُ قـــرة الفـــؤاد الغاليـــةْ

فأشـــفق الـــنبي أن يجيبـــــا ... ومـــن أعـــز منهمـــا حبيبـــاً
لـو تطلبـون الـروح حلـت لكمـا ... ومـن رجـائي في الـورى سـواكما
لكنـــه الفـــيء ومـــال الفقـــرا ... وإنـــني مـــؤتمن فمعـــذرة
لا زلتمـــا في فـــترة الفتـــوة ... أدعـــو لكـــل منكمـــا بـــالقوة

وكيـف أعطـيكم وأهـل الـصفة ... حـولي وهـم يلتمـسون العفـة
تطـوى بطـونهم أسـى وجوعـاً ... أمـــرت أن أخـــدمهم جميعـــاً

فـإن تكـن علـى الـورى أمينـا ... فـاتبع سـبيل المـصطفى يقينـاً
وددت لـــو يـــسمعها المـــسؤول ... فافعـل كمـا علمـك الرسـول
تقـــسم مـــال الله في عبـــاده ... وفـــق الـــذي بـــين في إرشـــاده
ولا تحـــابي زوجـــة وصـــهراً ... وارغـب بمـا عنـد الإلـه ذخـرا
صـــلى عليـــه الله في الأبـــرار ... وصـــحبه مـــشاعل الأنـــوار

❖ ❖ ❖

القصيدة السادسة والعشرون
طعمة بن أبيرق

كان طعمة بن أبيرق رجلاً من الخزرج، وهو غير معروف في السابقين الأولين ولكنه كان يشهد الجمعة والجماعة مع النبي الكريم.

ذات يوم كاد له الشيطان وزين له سرقة متاع من دار قتادة بن النعمان وحين وصل بالمتاع المسروق تبين أن الكيس كان مثقوباً وأنه لا بد أن يهديهم إلى السارق فعمد من فوره إلى دفعه لرجل يهودي اسمه زيد بن السمين.

حين رفعت القضية إلى النبي الكريم واتهم فيها طعمة وزيد بن السمين اليهودي، وكان مطلب الأصحاب أن يحاكم اليهودي ويعاقب جزاء وفاقاً، لأن المتاع المسروق كان في داره، ومال رسول الله إلى هذا الحكم اعتماداً على القرينة، وتعاطفاً غير إرادي مع المسلم.

ولكن القرآن الكريم نزل واضحاً بعد ذلك في الدفاع عن اليهودي المظلوم وتوبيخ المنافق السارق ولو تدثر بالصلاة والصيام.

أمام العالم وقف النبي الكريم بكل شجاعة وقال: أيها الناس إنكم تختصمون إلي، وإنما أنا بشر ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له بنحو ما أسمع فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما هي قطع من النار فيأخذها أو ليدعها.

كانت القصة مناسبة لتقرير وجوب استقلال السلطة القضائية ووجوب صدور أحكامها عن تثبت ويقين وليس عن ظن وتخمين.

وأعتقد أن التأمل في الآيات التي نزلت إبان قصة طعمة يكشف لك حزم القرآن الكريم في مخاطبة النبي الكريم بشأن وجوب استقلال القضاء ومحاكمة الناس وفق أعمالهم وليس وفق معتقداتهم مهما كانت هذه المعتقدات بعيدة وغير منطقية.

عن ابن عباس: «أن نفرا من الأنصار غزوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في بعض غزواته، فسرقت درع لأحدهم، فأظن بها رجلا من الأنصار، فأتى صاحب الدرع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فقال: إن طعمة بن أبيرق سرق درعي. فلما رأى السارق ذلك عمد إليها، فألقاها في بيت رجل بريء، وقال لنفر من عشيرته: إني غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان، وستوجد عنده. فانطلقوا إلى نبي الله ليلا، فقالوا: يا نبي الله، إن صاحبنا بريء، وإن صاحب الدرع فلان، وقد أحطنا بذلك علما، فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس، وجادل عنه، فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك.

فقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبرأه وعذره على رؤوس الناس، فأنزل الله:

إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما (١٠٥) واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما (١٠٦) ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا

أثيما (١٠٧) يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا (١٠٨) ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا (١٠٩) ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما (١١٠) ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما (١١١) ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا (١١٢) ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما (١١٣).

طعمة بن أبيرق

روى إمـام الحـافظين الطـبري ... تفـسيره مكلـل بالـدرر
في سـفره الجـامع للبيـان ... وأوسـع التفـسير للقـرآن

بـأن درعـاً غـالي الأثمـانِ ... سُـرق مـن قتـادة النعمـانِ
درعٌ مـن الحديـد والرصـاصِ ... مـزركشٌ بـسورة الإخـلاصِ
قـد زخرفـت وطعِّمـت قـصديراً ... ودفعـوا أثمانهـا كـثيرا
والـدرع كـان في جـرابٍ خَلِـقِ ... غـزاه لـيلاً طعمـة الأبيرقـي

وحـين خـاف مـنهم الفـضيحة ... دفعـه وديعـةً صريحـة
إلى اليهـوديْ زيـدٍ الـسمينِ ... مـراده الإيقـاع بالمـسكين
أودعـه لديـه مكـراً عامـداً ... وقـال إنـني مـسافر غـدا

وكـان في جرابـه دقيـقُ ... ومـن نثـارِه بـدا الطريـقُ
وعنـدما انكـشف أمـر الـسرقةْ ... تتبعـوا الطحـين في الأزقـةْ
أوصـلهم لبـاب بيـت طعمـة ... وقـد أحاطـت فيـه كـل التهمـة
فـأنكر اللـص وفـارَ بالغـضبْ ... يـا ويلكـم تبـت يـدا البـاغي وتـبْ
ألم تروني راكعـاً وسـاجداً ... مـسبِّحاً وأسـكنُ المـساجدا
أصـوم كـل اثـنين وخمـيسِ ... ولعنـة الله علـى إبلـيسِ

متـاعُكم سـرقه اليهـودي ... زيـد الـسمين صـاحب التلمـودِ
وحـين جـاؤوا زيـداً الـسمينا ... وأخـبروه مـا جـرى مبينـاً
أعطـاهم الـدرع وقـال مرحبـا ... أودعـه طعمـة عنـدي عجبـا

يريـــد أن أحفظـــه وديعـــةْ ... يـا بؤسـها مـن حيلـة مريعـةْ
فكـذبوه علنـاً جهـــاراً ... هـذا اليهـودي يفـتري الأخبـارا

وهـــرول القـــوم إلى الرســـول ... احكـم لنـا بمقتـضى الأصـول
فـاحكم لنـا وعاقـب الحرامـي ... ذاك اليهـوديْ صـاحبَ الآثـام
صاحبنـــا التقـــي والنقـــيُّ ... وذا اليهـــودي مفـترٍ شـقيُّ
صـاحبنا لبـى وطـاف وسـعى ... نهـــاره ذكـرٌ وليلـه دعـا
فهـم أن يـبطش بـاليهودي ... إذ كانـت الـدرع لـدى اليهـودي
قرينـة وتؤخـذ القرينـةْ ... دليـلَ إثبـات لكـي ندينـهْ

فنـزل القـرآن فيهـا صـارماً ... يـا ويـل مـن يقـترف المآثمـا
فـاحكم بهـم بالعـدل مـستقيماً ... ولا تكـن لخـائن خـصيماً
هـا أنـتم أتقنـتم المنـاظرة ... فمـن يجـادل عـنهم في الآخـرة
وحكـم القـرآن لليهـودي ... بـراءةً مـن سـائر البنـود
وطمـس المنـافق الأثيمـا ... وحـسبنا الله بهـم عليمـا

رسـالة لكـل قـاض منـصف ... وعـبرة لكـل قـارئ وفي
فـسوّ بـين النـاس في القـضاء ... لا تلتفـت للـذم والثنـاء
عـدل القـضا في جنـه وإنـسه ... ولا تـسل عـن دينـه وجنـسه

قرآننـا رسـالة العدالـة ... بـه هـدانا الله مـن ضـلالة
والمـصطفى معلـم الأنـام ... بالعـدل والـيقين والإسـلام
صـلى عليـه الله مـن معلـم ... وموئـل الهـدى لكـل مـسلم

❖ ❖ ❖

القصيدة السابعة والعشرون
نعيمان

نعيمان بن عمرو الأنصاري خزرجي من بني النجار، كان يضحك النبي صلى الله عليه وسلم، وله أخبار مشهورة في ذلك.

كان وجود نعيمان في مجتمع المدينة المنورة صورة لواقعية النبي الكريم وإنسانيته، فمع أنه كان في شغل دائم بهموم الأمة وكان يقول لو تعلمون ما أعلكم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله، ومع أنه صلى الله عليه وسلم كان في وجهه خطان أسودان من طول البكاء، وكان إذا ذكر الآخرة ارتعدت فرائصه وإذا قام إلى الصلاة تغير لونه وارتعد، ولكنه على الرغم من ذلك كله فقد كان يجد في فسح لحاظه فرصة للفرح والبسمة، في مقاربة واضحة لفطرة الإنسان كما خلقه الله تعالى، روحوا القلوب ساعة فساعة فإن القلوب إذا كلت عميت.

في مواقف نعيمان كانت الدهشة سيد الموقف، ومفاجآت تفغر الأفواه، ولكنها كانت دوماً تنتهي ببسمة ورضا وقرة عين، تعزز قول الأول: يعجبني الرجل يكافح وهو يبتسم.

شاب لا يبكي متوحش وعجوز لا يضحك ميت.

لم يكن نعيمان في السابقين الأولين ولا في المقدمين من أهل الجهاد، ولكنه شاركهم في الحب لرسول الله وأنس به النبي الكريم وأحبه،

ولعل حبه للرسول وأنسه به غره أن يسلك سبيل المجاهدين الصادقين، فعثرت قدماه في عدد من المواقف وأقام عليه عمر بن الخطاب حد الخمر ومن يدري فلعل نعيمان تدركه ابتسامة من رسول الله تنقل ملفه من يد مالك إلى يد رضوان وما ذلك على الله بعزيز.

عن يحيى بن محمد في إسناد له؛ قال:

كان نعيمان الأنصاري يدور في أسواق المدينة، فإذا دخل السوق طرفة من رطب أو فاكهة أو غير ذلك، اشتراه فأهداه للنبي صلى الله عليه وسلم، وكان فقيرا، فإذا كان من آخر النهار؛ راح إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه صاحب الحق، فيقول: يا نبي الله! أعط هذا حقه من ثمن كذا وكذا. فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم: «أو ما أهديته إلينا يا نعيمان؟!» فيقول: والذي بعثك بالحق؛ ما معي قليل ولا كثير، ولقد رأيته فلم تطب نفسي أن أجوزه وأدعه أو يشتريه أحد فيأكله قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فيضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأمر له بدفع حق الرجل إليه[1].

(١) المجالسة وجواهر العلم، ج٢، ص ١١٥.

نعيمان

روى الإمام الحافظ الدينوري ... محقق الحديث والتفسير
في سفره روائع المؤانسة ... أكرم بمن جالسه وآنسه

أن النبي المصطفى الكريما ... وكان براً راحماً حليما
يهابه من لم يكن قد جالسه ... يحبه من كان قرباً آنسه
يقود في الحرب السرايا خطباً ... فإن جلا الحرب حبانا الحبا
وكان أكثر الورى ابتساما ... تراه حباً ضاحكاً بساماً
إذا تجلى بيننا في سهر ... فوجهه كقطعة من قمر

وكان في أصحابه ظريفُ ... يدعى نعيمان فتى لطيفُ
وكان يضحك النبي فرحا ... وكان لا يكفُّ عنه مرحاً

أتى إلى السوق مع البكور ... يختار ما يدعو إلى السرور
وملأ الكيس بما تخيرا ... من عسل ولوزِ جوزٍ وقِرى
وأوقر الحمل بما يطيب ... أجود ما يختاره اللبيب

حمله لباب بيت المصطفى ... أفضل خلق الله براً ووفا
يسعدني أن تقبلوه مني ... هدية إليك دون من

رجوته زاداً ونعم الزاد ... فاطبخ وجد ولتأكل العبادُ

ومـن سـواكم أهـل فـضل ماجـدُ ... يـا نعـم مـا تحـشده الموائـدُ
فقبـل الـنبي منـه شـاكراً ... دعـا لـه وجـدد المـآثرا
وبعـد أن تفـرق التجـار ... وآب كـلٌ بالـذي يختـار

أتـى نعيمـان إلى الـنبيِّ ... ومعـه التـاجر بالعـشيِّ
حيـا نعيمـان الـنبيَّ بـأدبْ ... وقـال أعطـه وأجمـلْ في الطلـبْ
ألم تكـن أخـذت مـن بـضاعتهْ ... فـأد حـق الله وفـق طاعتـهْ

فـدهش الـنبي ممـا سمعـا ... ومـا نعيمـان لـه قـد جمعـا
وقـال في لطـف وفي سماحـةْ ... ألم تكـن أهديتنـا صـباحا؟

حيـا نعيمـان الـنبيَّ حبـاً ... يـا أطهـر النـاس صـفا وقلبـا
فـو الـذي اختـارك للأنـام ... رسـول حـق الـبر والـسلام
رأيتـه أجـود مـا في الـسوق ... يزهـو بمـا يبيـع فـوق النـوق
رغبـت أن تطعَمَـه قبـل الـورى ... يا خير من باع وخير من شرى

تـدري بـأني مفلـس تعـيسُ ... وكـل مـا أملـك هـذا الكـيسُ
شـريته ومـا معـي مـن درهـمِ ... فـأد حقَّـه وجـد بـالكرمِ
فأعطـه نقـودك المباركـةْ ... يا سعد من للمصطفى قد شاركَهْ

حدثتـه عـن جـود آل هاشـم ... فـافرد يـديك اليـوم بالمكـارم
وحلِّـه مـن الهدايـا والقِـرى ... يكـن بهـا منعَّمـاً وشـاكراً

حلفــتُ أن تعطيَــه... لا تحنُــثِ بنعمــة المــولى الكــريم حــدِّثِ
واطــبخ لنــا الــبعير في القــدورِ أكــرم ببيــت الجــود والــسرورِ

فــضحك الــنبي في صــفاءِ وظــل فرحــان إلى المــساءِ
وقــال أدوا حــق هــذا التــاجرِ مــن نعمــة تُرجــى وذكــر عــاطرِ
والحمــد لله علــى مــا أنعمــا المــال مــالُ الله إذ تكرمــا
ونحــن مــن إحــسانه عبيــدُ بالــشكر مــن إنعامــه مزيــدُ
صــلى عليــه الله في عــلاه في بــدء أمرنــا ومنتهــاه

❖ ❖ ❖

القصيدة الثامنة والعشرون
ابـن سـينا وغـلامــه

الشيخ الرئيس ابن سينا، الحسين بن عبد الله (٣٧٠ ـ ٤٢٨هـ) إمام عصره في العلوم والمعارف وهو الذي ملأ ذكره العصور والبلاد، ونبغ في الطب والفلسفة وعلوم الطبيعة، حتى قصده العلماء من كل وجه وأجمع الناس على علمه وموهبته وتفوقه.

يروى أن غلاماً له كان دائم العناية به والخدمة له، خلا به يوماً فقال: ألا ترى يا مولاي كم بلغت من مجد ومنزلة ومكانة!!، فلو أنك أعلنت نفسك نبياً لاتبعك الناس من كل أرجاء الأرض، وتجدني أوفى إخوانك وأعز أصحابك!!

لم يجبه ابن سينا بشيء!!

وبعد أيام أيقظه ابن سينا قبل الفجر بساعة في ليلة باردة من ليالي بخارى، وطلب إليه كأس ماء من البئر في فناء الدار، فجعل الغلام يتعلل بالبرد والثلج، وطال سؤال الشيخ له وطال اعتذار الغلام.

عند ذلك أيقظه ابن سينا وقال له: قل لي ماذا تسمع الآن؟

قال: أسمع صوت المؤذن على المنارة، قال له: ماذا يقول؟ قال: إنه يؤذن للصلاة ويصلي على النبي محمد.

قال ابن سينا: الآن أجيبك أيها الغلام فيما طلبته إلي قبل أيام، سألتني أن أعلن نفسي نبياً مثل محمد وعيسى وإبراهيم، ويحك!!..

إن محمداً يخرج الناس من فرشهم في هذا البرد القارس إلى رؤوس المنائر ليذكروه بالدعاء والصلاة، وقد مات منذ أربعة قرون، وقبره في أقصى الأرض، أما ابن سينا فلم يفلح أن يخرج غلامه الأول إلى البئر، ليستسقي له كأس ماء!!..

ابن سينا وغلامه

يُروى عنِ الشَّيخِ الرَّئيسِ فينا ... العارفِ المعلمِ ابنِ سينا
وكانَ شيخَ العُلماءِ طُرًّا ... في الأرضِ يشغلُ الأنامَ ذِكراً
إمامَ علمِ الطِّبِّ والطبيعةْ ... وفيلسوفَ الشَّرْقِ في الشَّريعةْ

غلامُهُ خلا بهِ عَشيًّا ... وكانَ يبدو مخلصاً وفيًّا
فقالَ يا إمامُ.. عشتَ سيِّدا ... ذكراكَ تشدو بالعطاءِ والنَّدى
وقَدْ ملأتَ سائرَ البلادِ ... وعلمكَ المكنونُ خيرُ زادِ

لكَ الورى تُقِرُّ بالإمامةْ ... وكلُّهمْ منحكَ الزَّعامةْ
العلمُ نعمةٌ حباها المولى ... وأنتَ فعلاً أهلها وقولا
ولم تزلْ مُقدماً رئيسا ... على خُطى نُوحٍ وعلمِ عيسى

فإنْ يكنْ لِكُلِّ عصرٍ مرسلُ ... فأنتَ لا ريبَ النبيُّ المرسلُ
قُمْ فاتَّخِذْ حراءَ في بخارى ... يتبعك الإسلامُ والنصارى
وسِرْ بنا فإنَّكَ الملاذُ ... ولْيتنزَّلْ معكَ الإعجازُ

وضُمَّ علمَ الأولينَ فيهِ ... والآخرينَ وفقَ ما تمليهِ
ونادنا يا معشرَ الأصحابِ ... إني نبيّ لأولي الألبابِ
تَجِدْ بنا الصدِّيقَ والفاروقا ... مجاهدينَ ننصرُ الحقوقا
وطلحةً وعُقبةً وخالدا ... ورافعاً ومصعبَ المجاهدا

هيَّا إلى المجدِ إمامَ العصرِ ... يأتوكَ سعياً من فجاجِ مصرِ

الـــشرقُ عطـــشانٌ إلى النبـــوةْ وأنـــتَ تحبونـــا يقـــينَ القـــوةْ

ولم يـــزلْ يـــدعوهُ في حمـــاسِ وابـــنُ ســـينا مُطـــرقٌ للـــراسِ
وقـــالَ مهـــلاً إنَّهـــا حيـــاتي ســـأدرسُ الموضـــوعَ في أنـــاةِ
أمنيـــةٌ.. وتعـــذُبُ الأمـــاني والعمـــرُ لا يحلـــو بـــلا أمـــاني

وذاتَ ليـــلٍ وبُخـــارى ترجـــفُ والـــثلجُ مـــنْ كـــلِّ مكـــانٍ يندفُ
النـــاسُ مِـــنْ بـــردٍ تـــصكُّ صَـــكَّا يكـــادُ ريحهـــا يهـــدُّ الـــدكَّا
وشـــيخنا المعلـــمُ الإمـــامُ في حجـــرةٍ ومعـــهُ الغـــلام

أيقظَـــهُ الإمـــامُ عنـــدَ الـــسَّحَرِ وقـــالَ يـــا غـــلامُ قـــم لأمـــري
وقـــالَ قُـــمْ أريـــدُ كـــأسَ مـــاءِ عطـــشانُ لم أشـــرَبْ مـــن المـــساءِ

فقـــالَ مَـــنْ يطيـــقُ هـــذا الـــبردا تهـــدُّ ريحُـــهُ الـــديارَ هَـــدَّا
ألم تُـــشاهدْ قـــوةَ الريـــاحِ كلابُنـــا كفـــتْ عَـــنِ النبـــاحِ

تيبَّـــسَتْ مـــن هولِـــهِ الأغـــصانُ أوراقُـــه كأنّهـــا أكفـــانُ
فكيـــفَ أدلـــو الـــدلوَ في الـــدِّلاءِ والـــثلجُ غطَّاهـــا مِـــنَ المـــساءِ
أمْ هـــلْ تريـــدُ أنْ أمـــوتَ رهقـــا يغمرنـــي الـــثلج.. أمـــوت خنقـــا

اصـــبِرْ إلى الـــصَّبَاحِ في البكـــورِ سأكـــشفُ اللحـــافَ عـــنْ ســـريري
آتيـــكَ بالـــشَّرابِ والطعـــامِ فترتـــوي بالمـــاءِ والإدامِ

ولم يـــزلْ يكـــرِّرُ المناشـــدَةْ مِـــنْ دونِ أنْ ينـــالَ أيَّ فائـــدةْ

وبعـــــدَ أنْ تكـــــرَّرَ الرَّجـــــاءُ ... والحلـــقُ غـــصَّ لا يجـــيءُ المـــاءُ
وكَـــــزَهُ وقـــــالَ يـــــا غُـــــلامُ ... قُـــمْ فاســـتمِعْ ســـيبدأُ الكـــلامُ

أنْـصِتْ.. وقـالَ مـا الـذي تـسمعُهْ ... والليـــلُ يـــسَّاقطُ منـــه دمعُـــهْ؟
فقـــــالَ إنِّـــــي أسمـــــعُ المؤذِّنَـــــا ... تـــسبيحُهُ يبعـــثُ في الـــشَّجَنا
نـــداؤُهُ يـــا مُنتهـــى الرجـــاءِ ... ترحمنـــا في الـــصبحِ والمـــساءِ
أذانُـــهُ حـــيَّ علـــى الـــصلاةِ ... يـــا حبـــذا مُنَـــوِّرُ الحيـــاةِ

صـلَّى علـى الـنبيِّ سـيِّدِ الـورى ... وفخـرِ كـلِّ مَـنْ هَـدى وبـشَّرا
صـــلَّى علـــى معلِّـــمِ الفـــلاحِ ... محمـــد الهـــادي إلى النَّجـــاحِ

وقـــالَ: أيـــنَ يقـــفُ المـــؤذنُ؟! ... وهـلْ تـراهُ في اللِّحـافِ يُـدفَنُ؟!
فقـــالَ: كـــلا بـــلْ علـــى المنـــارةْ ... يكـــررُ الليـــلَ بهـــا اســـتغفارهْ

أجابَـــهُ المعلـــمُ الـــرئيسُ ... كلامُـــهُ مجـــوهرٌ نفـــيسُ
يـا ويـحَ مـا سـألتنيهِ البارحـةْ ... تنـــزَّلتْ عليـكَ فيهـا الفاضِـحةْ
ســـألتني أغـــدو لكـــمْ نبيًّـــا ... يـــوحَى إلـــيَّ بكـــرةً عـــشِيًّا

وأنَّكُـــمْ كمعـــشرِ الأنـــصارِ ... أو أهـــلِ بـــدرٍ الـــسادةِ الأخيـــارِ
وأنكـــمْ حـــولي مُهاجرونـــا ... مـــن أجلـــيَ الـــدُّنْيا تقاتلونـــا

محمـدٌ يُخـرجُ هـذا الـصائحا ... مـــن دارهِ ودفئِـــهِ مُكافِحَـــا
في الزَّمهريـــر والثلـــوجُ تنـــدفُ ... والغيـثُ مِـنْ كـلِّ مكـانٍ ينـزفُ
مَـضَتْ قـرونٌ أربـعٌ مـنْ بعـدهِ ... وتـــشرقُ الأيَّـــامُ وفـــقَ وعـــدهِ

وأرضـــــهُ وقـــــبرهُ بعيـــــدُ ... آلافَ أميـــــالٍ وكـــــمْ تزيـــــدُ
لا زالَ ذكـــــرهُ علـــــى المـــــآذنِ ... تـــــسمعهُ في ســـــائرِ المـــــدائنِ
يعـــــاثفونَ الـــــبردَ والثُّلوجـــــا ... ويركبـــــونَ أنهـــــراً وموجـــــا
مـــــرادهُمْ مـــــن ذكـــــرهِ الـــــشَّفاعةْ ... ويَلزمـــــونَ بابَـــــهُ ضَـــــراعةْ

أمّـــاً ابـــنُ ســـينا شـــيخُكَ الـــرئيسُ ... وأنـــتَ يـــا هارونـــهُ التعـــيسُ
ما اسـطاعَ كوبـاً مـنْ معـينِ البئـرِ ... وظـــلَّ عطـــشانَ لوقـــتِ الفجـــرِ

صـــــدِّيقُهُ الأوَّلُ في اللِّحـــــافِ ... وشـــيخُه يرجـــوه باســـتعطافِ
تحبـــسُه أصـــواتُ ريـــحٍ تُـــصفرُ ... فيـــسكنُ الفـــراشَ وهـــو يـــشخرُ
يعلِّـــــل الإصـــــباحَ أن يطـــــولا ... ينـــــامُ في فراشـــــهِ عليـــــلا

بُنَـــيَّ يـــا ويحـــكَ مـــنْ غُـــلامِ ... وكـــمْ تعـــيشُ في وهـــى الأحـــلامِ
الـــوحيُ يـــا غـــلامُ لـــيسَ يُـــشرى ... ولا يُبـــــاعُ جملـــــةً أو نثـــــرا
وربَّمـــــا يـــــسَّابقُ العبـــــادُ ... ومـــــا لـــــسعيٍ ضـــــائعٍ رَشـــــادُ

وربَّمـــــا تـــــشاءُ أو أشـــــاءُ ... واللهُ يـــصطفي الـــذي يَـــشاءُ
تُريـــــدُ أو أريـــــدُ أو نريـــــدُ ... ومـــــا لنـــــا بغـــــيرهِ تـــــسديدُ

وكَـمْ مـنَ الأقـدارِ يرقاهـا الفَتـى ... وربَّمـا يرجـعُ مِـنْ حيـثُ أتـى
ومـا تـشأ فابلغْـهُ مـنْ مكاسـبِ ... فالـدهرُ غُلْـبٌ للقـويِّ الكاسـبِ
لكنَّهـــــا النبـــــوةُ الجليلَـــــةْ ... رائعـــــةُ العطـــــاءِ مـــــستحيلَةْ

فـــإنْ تكُـــنْ في علمـــهِ نَبِيَّـــا ... ففـــضلهُ، ومـــا يمـــنُّ شـــيَّا

وإنْ زَوى عنــكَ عطــاءَ فــضلهِ فاطلبــهُ في إحــسانِهِ وعــدلهِ

(ولم تكُــنْ نبَّــوةٌ مكتــسبَةْ ولـو رَقـى في الخيـرِ أعلـى عقَبَـةْ
بــلْ ذاكَ فــضلُ اللهِ يُؤتيــهِ لمــنْ يــشاءُ جــلَّ اللهُ واهــبُ المــنـنْ)

فـإنْ يـشأ يجعلـكَ موسـى فَـضْلاً وإنْ يـشأ يحجُـبُ عنـكَ الفـضلا
والعاقــلُ الــسَّعيدُ مَــنْ يُــسلِّمُ مــا اختــارهُ اللهُ فــذاكَ الأحكــمُ
إنْ لم تكـنْ موسـى فكـنْ هارونـا إيــاكَ فاحــذَرْ لا تكــنْ فرعونــا

إنْ لم تكــنْ مئذنــةً طويلــةْ فكــنْ إذاً كقُبَّــةٍ جميلــةْ
يحلــو بنــو الإنــسانِ بالتعــاونِ فابْـسُطْ حبـالَ الـودِّ بالتـضامُنِ

إنْ لم تكــنْ محمــدَ النبيَّــا فكــنْ إذاً صــدِّيقَهُ الوفِيَّــا
أو عمــرَ الفــاروقَ أو عثمانــا أو كُــنْ عليــاً وانــشرِ الإيمانــا

كــلٌّ ميــسَّرٌ لمــا قــدْ خُلقــا لا تحــسدَنَّ ســابقاً إنْ ســبقا
وقــلْ لعــلَّ اللهَ يعفــو مــا مــضى ويكتــبُ اللطـفَ لنـا فيمـا قـضى
والحمــدُ للهِ علــى التَّمــامْ في البَــدءِ والتَّمــامِ والختــامْ

❖ ❖ ❖

وإذ أضع القلم فإنني أشكر القارئ الكريم الذي صحبني في هذه الجولة الجميلة في رحاب بيت رسول الله، وآمل أن هذه الكلمات التي طربنا بها معاً تصل إلى مسامع المحبين رجاء أن تشدو بها الحناجر الطيبة وتنشدها الأنفس الحائرة وتغردها القلوب.

وما من كاتب إلا سيفنى ... ويبقي الدهر ما كتبت يداه
فلا تكتب بخطك غير شيء ... يسرك في القيامة أن تراه